قصص

من هنا... وهناك

بشرى محمد أبو شرار



من هنا وهناك

رواية

بشرى محمد أبو شرار

فهرس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الحادي والثلاثون

الفصل الثاني والثلاثون

الفصل الثالث والثلاثون

الفصل الرابع والثلاثون

الفصل الخامس والثلاثون

الفصل السادس والثلاثون

الفصل السابع والثلاثون

الفصل الثامن والثلاثون

الفصل التاسع والثلاثون

الفصل الأربعون

الفصل الحادي والأربعون

الفصل الثاني والأربعون

الفصل الثالث والأربعون

الفصل الأربع والأربعون

الفصل الخامس والأربعون

الفصل السادس والأربعون

الفصل الاول

ورأتها

نامت جميلة، سافرت في منامها بعيـداً، دخلـت أمهـا حجرتها، تأملتها طويلاً، وحين عادت من نومهـا اقتربـت منها تجلس على طرف سريرها هامسة لها :

- بنيتي.... رأيت طائر الأحزان فارداً جناحيـه علـى قسمات وجهك في غفوتك.

رفعت جميلة جسدها تحاول النهـوض، تتأمـل حـوائط حجرتها وملامح وجه حنون قريب منها، تـود لـو تسـأل أمها :-

كيف كشفت عن حزني حين غافلتني لحظات النوم؟! وأى حزن هذا الذى رأته؟!.. أم أن طائره جعـل مـن قسـمات وجهي عشاً ومأوى.

الفصل الثاني

نقطة مرور

سيارة جميلة تجوب طرقات مدينتها.... تعـرف الأزقـة وطرقات تحاذي النيل فيغرق في عينيها.... من وراء مقـود سيارتها ترى كل المشاهد، حواجز أقيمت على الطرقات.... تتذكر أن رخصة قيادتها منتهية، ولكنها لم تتوقف عن قيادتها يوماً واحداً، بقلب جسور تمـر علـى الطرقـات، تصـافح نسماتها، تحكى لها حكايات من الأساطير وقلـب الزمـان، وحكايات لازالت قابعة في صفحات الغيب البعيد....

في يوم من أيام لم تـدون بعـد، وقـع الجـدار وعـلا الردم ممزوجاً بالدم.... واللحـم.... وذكريـات لازالـت صغيرة وهدايا منقوش عليها بحـروف كلمـات سـتحملها حقائبهم حيث هناك... طار الخبر محلقا في سـماء سـيناء العنيـدة المتحديـة.... عبـر القنـال.... الإسـماعيلية....

الجيزة.... لتنام مصر على هم ثقيل، لم يعرف الجميـع مـا الذي حدث هناك على آخر حدود الوطن العائد.... فلم تـزل آثار الدماء تسكن المآقي ورصاص دمدم يفتت فـي عظـام الأطفال وجماجمهم، و مشاهد حية لم تمـت، حـين حمـل ناصر تلك الطفلة التي لم يظهر منها سوى أطـراف لأقـدام مدلاة وساعد يصافح نسمات هواء معبقـة برائحـة الـدواء والمخدر.... تسرى جرعاته بكثافة لتكتم صرخات أطفال لم يتعلموا كيف يكتمونها وتحبسها أجسادهم، ورأس تلك الطفلة التي ألقيت على السرير، تقلب على وجهها ولم تصرخ.... لم تستغث.... بل عانقت بوجهها مشمعاً سميكاً سالت عليه دماء ودماء فلم تصرخ.... لم تصرخ.... تعبث أيدي الأطباء فـي مؤخرة رأسها، ليضغط واحد، ويثبت آخر الرأس ويسـحب ثالثهم رصاصة، رصاصة دمدم لم تطاوعهـا عزيمتهـا أن تتفجر في مؤخرة تلـك الـرأس الطفلـة.... تنتـزع يـده الرصاصة.... تتلقفها أخرى تلفها بالشاش، ويقلـب جسـدها ليطالعوا بشغف وولع قلق وجههـا.... لازال المشـهد حيـاً في رأس جميلة.... وابتسامة طفلة من عناق الدم الدافئ....

ابتسامة من قوة تسكن مؤخرة رأسها.... قوة منعت رصاصة دمدم أن تتفتت فيها....

واليوم تنام القاهرة على حكاية ملؤها الدم.... الـدمار.... وأيد تلم بقايا من لحم قد يدلهم علـى أصـحابه.... ولكنهـا تعرف وجوه أطفال مخيم جباليا.... تحفظ ملامحهم.... تحفظ ألوان ملابسهم.... وأصوات ضحكاتهم.... بكاءهم.... وحجم الفزع حين يعلو الصراخ....

(عبد ا تايه) وخوفها من السؤال عنه في أتون الجحـيم، تعيش على أمل أنه لازال هناك باقياً معهم، وحقيبة سـفره، أفرغ ما فيها، فلم يعد للسفر طريق.... تصحو القاهرة علـى أناس لم يعرفوا أهو ليل جاء إليهم أم نهار ولى عـنهم؟.... تعج الطرقات برجال الأمن.... تنصب الحواجز والمتـاريس وأيد تشير للمارين بالوقوف.... تفتيش... إبراز تصـاريح، رخص للمرور وتفكر جميلة أن حان الوقت لتجدد رخصـة عبورها.... تبدأ يومها متجهة إلى منطقة التراخيص تحمـل أوراقها، عقدت عزيمتها لتأخذ مكانـاً لهـا وسـط تـزاحم الجمهور أمام الفتحات الزجاجية المقامـة فـوق الحـواجز، لحظات الانتظار طويلة تسير نحوها بحذر وتباطؤ، تعيشـها

جميلة وتقطف براعم صبرها التي أينعت من جـذور شـجر الصبار على مداخل وطنها حـين تعـود الجمـوع وحـين ترحل.... وما إن بدأت تستسلم لمشـاهدها البعيـدة حيـث تؤنسها في وقفتها، حتى وجدت نفسها أمام الفتحة الزجاجيـة تمد يدها من خلالها، ورجل يتناول أوراقها ينظرهـا، رفـع رأسه مخاطباً:

- **من أين أنت؟**

صمتت.

وعاد صوته يرتفع أكثر :

- من أين أنت؟!....

نظرت لأوراق لها يمسكها بيده فحالت غربتهـا بينهمـا وتعثرت في إجابة لم تأتِ إليها في تلك اللحظة الثقيلة.... لم تنطق.... ولم يعلُ صوتها مجيبة الرجـل الجـالس خلـف الزجاج.... فلسطينية.... أردنية.... مصرية.... لم تنطـق، نظرت إلى راحة يدها فلازالت ممسكة ببقيـة مـن أوراق، ناولته إياها في صمت مهزوم، قطعه ارتطام الختم الذي دق به على أوراقها، وناولها إياها :

- اذهبي إلى الشباك الأخير لتضعي ختماً آخر.

ارتدت بخطواتها إلى الوراء لتجد نفسها وسـط الصـالة الكبيرة تذوب وسط الزحام، تطوف بعينيها الشـبابيك وكـل طاقة تقف خلفها أعداد تتزاحم لأجل الوصول إلى تلك الفتحة الضيقة التي تدخل من خلالها راحات أيديهم الممسكة بهويات تدل عليهم وفراغ يبتلعهم، يمتص ما تبقى منهم وهى التي لا تجيد دس جسدها بين الجموع تزاحم لتصـل وكيـف لهـا بالوصول، عادت تنظر للزجاج وما خلفه كان الرجل يلـوح لها بيده أن أعطني أوراقك، تقدمت نحوه رافعة يدها بأوراقها فتناول منها من يتقدمها ليعطي لآخر.... وآخـر.... حتـى وصلت إلى الرجل الواقف خلف الزجاج ويدق بالختم الأخير ويعيد لجميلة أوراقها وسط ابتسامة رسمت على وجه حنطي كانت تفصلها عنه مسافة تعج بالأجساد المنهكـة، وحـواجز زجاجية تحمل فتحات من الفراغ تضيق وتضيق حتى تكـاد تقبض على الراحات الممدودة، تحمل أوراقها العائـدة إليهـا وسؤال يلاحقها :

لِم تلعثمت حين سألني من أيـن أنـت؟.... مـا الـذي أصابني؟!....

ومن أكون أنا؟! .... ترى ما الحال التي آلت إليه؟!....

هل فقدت هويتي؟.... لم أنا حزينـة؟.... حـزن أسـمع صوت انفجاراته في صدري لحظة سألني من أين أنـت؟.. ركنت إلى حافة جـدار واطـئ، تنهـدت مـلء أنفاسـها المحبوسة.... رفعت رأسها لقرص الشمس فثقلت خيوطهـا على أهدابها.... عادت تنظر أوراقها وتتلفت حولها وتعـود حيث فضاء الكلمات التي لازال دفء لقائها مـع صـديقتها اليابانية يسري في أذنيها حين تحدثت إليها

- كيف ستكون النهاية لقضيتكم؟....

- ربما مائة.... ثلاثمائة عام.

التفتت لكلماتها مندهشة :

- أنا لا أفكر بهذه الطريقة.... لك نفـس طويـل يـا جميلة.... بل لكم جميعكم.... حين سألت رجلاً من بلـدتك، كان جوابه لي مثلك تماماً.

- الشعوب لا تموت.... أنسيت هيروشيما.... نجازاكى.

- نعم.... وعشنا.... ولازلنا.

ردت بنبره أسيانة :

- من كمبوديا.... هانوي.... سـايجون يـا صـديقتي، الطفلة هي الطفلة، حين سقطت قنابل النابالم وهروات تلـك الطفلة عارية عبر الطرقات المفتوحة على الجحـيم، كـان صراخها يصل إلى آخر حدود الأرض.... عارية الجسـد، بعد أن التهم النابالم ما يسترها، لازال بكاؤهـا مـدويا فـي أذني .... وجسدها لازال ملتهباً عارياً.... وطفلة هناك ترقد في سرير، جسدها بات بلون الرصاص.... وأخرى تجاورها تنظر لأختها كيف تبدل لونها القرمزي الشفاف إلـى دخـان رصاص البنادق.

أقامت جميلة جسدها قابضة على رخصة قيادتها.... آخذة طريقها من نقطة مرور أبيس.

الفصل الثالث

تأشيرة دخول

كان كل ما يدور في رأسها منذ عودتها من عمان متابعة ذلك المؤتمر الذى سمعت عنه في آخر زيارة لهـا لجريـدة الدستور، مضت تشق طريقها تاركة مقر الجريدة.... وكيف وقف موسى حوامده، وجهاد هديب مودعين لهـا، مشـيراً موسى لها بيده :

- في الأسكندرية نلتقى يا جميلة.

وكلماته في لحظات الوداع :

- ينتابنى شعور أننى أعرفك منذ سنوات بعيدة..

- وانا ايضاً..

موسى حين عرفها بنفسه قائلاً :

- انا من قرى الخليل بلدتى " السموع "

ذكـّرها اسم مدينته بساحة الباصات حين كانت تقف فـي محطتها الرئيسية في قلب مدينة الخليل، كانت تقـرأ اسـماء قرى الخليل من ساحة الباصات "السموع" محفورة في لوحة الاسماء المضيئة.... حيث كانت تقفز بنظراتها داخل الباص لتكتشف ملامح لوجوه تود لو تعرفها فتتوه بين الظاهريه... يطه... حلحول.. بيت أومر..الفـوار... الريحيـة... بنـى نعيم.... وتظل تلـك العينـان تتقـافزان عبـر الشـبابيك

المفتوحة.... حيث أجساد الرجـال.... الشـباب، الجميـع تحدوهم مشاعر العوده، وتلك المرأه المتشحه بثوب كنعـان حين كانت تأخذ مكانها في الباص بجوار النافذة المطلة على الساحة، لا تلبث ان تسند رأسها على راحة يـدها ونسـمات الخليل على موعد معها حين تصافح " غـدفتها" وملامحهـا الناطقة بأننى الكنعانية المغلفة بالأسرار والحكايات، تغمـض لها جفونها وتسافر ملامحها بعيدا عبر زجاج الباص الفاصل بينها وبين جميلة الواقفه تحمل سلها تنتظر باص يقلها إلـى قريتها " دورا "، زجاج الخليل الملون دوما بالدم ورسـومات على أثواب من آرام وكنعان وتسأل جميلة.... من أين جاءت تلك المرأه وإلي أين هى راحله؟!.... أظنها نزلت من عـين سارة وعبرت إلى حارة القزازين وجهها أراه.... أراه كلمـا نزلت سوق الخليل من قلب المدينة....

واقفه جميلة في ساحة الباصات المائجه بالحركه بجـوار مقبره تعتلى الربوه، ساكنيها لم يكفوا يقرأوا صـفحات مـن يوميات الخليل ويدون التاريخ وتذكر اجيالاً من اقـتلاع.... غرباء يدوسون على الارض يقلبون ويبعثرون مـا يلاقـوه أمامهم.... البسطة الخشبية مقلوبة في عـين جميلـة التـى

حفظت كل ما كان.... وكيف بعثر عنب الخليـل وحبـات رمانه بلون الدم ومقبرة صخرية شاهده تدون يوميـات مـن ساحة الباصات.... وقفته موسى أمامهـا مودعـاً ذكرتهـا وعادت بها إلى الوراء سنوات كـان يحتضـنها وطـن... باصات السموع.... ويد حكمت التى كانت دوماً فـي يـد جميلة التى تعتلى بها درجات الباص حيث قريتها تنتظر على أعلى قمة جبلية، وكلمات حكمت لها بأن الوقت قد يـداهمهن وأن آخر موعد للباص هو مع غروب الشمس، كان يحمـل غروبها آلام ودموع الفلاحات العائـدات دون أن يـبعن أو يشترين حيث أيد عاثت وبعثرت وداست والقـت.... كانـت عودتهم مريره ولكن تظل في نفوسهن عوسجة لا تنثنى أبداً، وموعد مع شمس غد، ومحركات باصات تصافح خيوطها ومن كل قرية تنحدر عبـر سـفوح الجبـال إلـى سـاحة الباصات... عبر رحلتها تحمل أحلاما تطل على الطرقـات حيث عودة مع غروب شمس وطنهم وذكرى أتى بها موسى من السموع، اما جهاد الذى فـتح لهـا اوارقـه.... سـألها وأجابته.... سألها عن الذاكره... عن المكان عن ما كتبـت وما ستكتبه.... عن ادراج فتحتها وأفرغت كـل مـا فيهـا

وأدراج لازالت مغلقة تنظر يدها التى تسحبها وتنقـب فيهـا لتحكى عنها

(جهاد) و سرداب الذكرى من حـارة القـزازين ووقـع اقدامها في ممرات التاريخ الطويل، أجولـة تحمـل حصـاد الأرض وعنوانها.... قمح وزيتون... رمان وتين.. أعشاب وبذور من حارة القزازين من مدينة الخليل من عين سـارة المطرز على ثوبها تفاحها الأخضر.... الأحمر.... محـال أغلقت وطرقات تؤدى اليها، وكيف تمتد يد الغربـاء لتـزيح غطاء رأس الرجل لتمرغه في أرض الأسفلت.... يقاوم.... ولكن تلك اليد تدفعه لينشحـط على أرضه وخيوط شمسـها تحمل قسمات وجهه الى مقبرة تعلو ساحة الباصات لتـدون يوماً من أيام الخليل، ووقفة عز الدين ولازالت رأسه تحمـل كوفية.... حين أمسك بقميص ذاك المجند وشده اليـه بقـوةٍ أرخت ساعده الحاملة لسلاحه.... أمام كـف تحمـل ثـورة يفجرها في ساحة الباصات التى تعتليها مقبره تدون يوماً من أيام الخليل.... لازالت افكار جميلة محملة بالذكريات التـى أثارها وجه موسى وجهاد

*****

من مداخل مكتبة الاسكندرية إلى قاعة المؤتمرات تنقـل عليها خطوات غربتها.... يظل الوعد لموسى هو الدافع لهـا للذهاب إلى هناك، تخرج مفكرتها، تفتح صفحاتها، تتأكد من تاريخ دونته فيها، تاريخ المؤتمر وعنوانه الـذى اسـتوعبته ببطء على غير عادتها حين نطق لها به موسـى "حريـة التعبير" هى كلمة ام صرخة تدوى حيث حريـة التعبيـر، وتدخل الى البهو الكبير بأرضيته الرخاميـة تتـوزع فيـه الأبواب المتواربة على قاعات يحـوم فيهـا هـواء محمـل بالبرودة لرياح الغرب.... كان حشد غير قليل فـي تجمـع لوقت الراحة.... تشق جميلة طريقها بينهم تفتش عن موسى القادم من شرق النهر، موسى الذى ودعها بكلمات قليلة :

- فيك ألفة ونقاء.... لا تطيلى الغياب يا جميلـة حـين ترحلين، وزورينا في زيارتك القادمة.

ولكن في وسط التجمع الكبير وذاك الرجل الذى مر من أمامها.... إنه هو.... تظنه نظر اليها ولكن بعينين شاردتين، يعلق شارة تحمل إسمه على صدره، نادته :

- جابر

- من...!!!!... لا أصدق.... جميلة!!..أنا الآن لتـوى افكر بالإتصال بك، كيف لى أن أكون بالإسكندرية ولا ألتـق بك؟!!

- وأنا أيضاً غير مصدقة أن ألتقيك هنا!!....

- حدثينى عنك وعن أخبارك....

وأستطرد قائلا :

- لقد قرأت روايتك التى أرسلتها لى في العام الماضى، وكم تأثرت بمنمنماتها الجميلة التـى أثـارت فـي نفسـى الشجن... رواية في قالب فنى رائع، وهذه تحسب لـك يـا جميلة.... ولكنى لم أكتب عنها.... أعـدك أن أكتـب عـن عملك هذا.

شردت جميلة وانفلتت من حديثه الى سنة مضـت منـذ التقت به في مؤتمر الروايه، كان منشـغلاً بتقـديم ابحاثـه ودراساته التى عن ما كتب " غسـان كنفـانى " تـداركت شرودها قائلة :

- عبد ا تايه روائى وقصـاص.. قـرأ لـى وكتـب أيضاً..سمعه نقاد وأدباء.... وكيـف لمالـم أعـواد ثقـابى

وأشعلها فأضاءت نفسى وللآخرين أنارت زوايا كانت خافية عنهم، فما كان منهم إلا كلمات اعجاب للجهد الذى قام به.

- نعم.... نعم.... عبد ا اعرفه ولكن علاقتى به..

توقف ليعيد مواصلة حديثه .... وبدأت تلتفت اليه، أكثـر يوم تحدث عن روايتك.... ولعلمك أنا الذى أوعزت لمقـدم البرنامج أن يعطيه مزيدا من الوقت ليتحدث ويسهب فيما أعد من دراسته النقديه عنك.

لم ترق لجميلة تلميحاته.... ولكنها حرصت أن لا تظهر له عدم إرتياحها لهذا الأسلوب عبر ملامح وجهها، وهى التى تدرك جيداً أن عبد ا يوم أن وصلته روايتها كـان عـن طريق صديقه " عز الدين " المهتم بكل جديـد ممـا يقدمـه الادباء، فتشجع لعملها وقدمها له ليقول رأيه، وحين قرأ لـم يكن يعرف عنها ولم تعرف عنه، ولكنهـا كلمـات كتبتهـا، فتقاسما الوجع على صفحات زمن لن تكون مطويه " من قمر في بيت دراس ".... لمن يدق الباب مع الذين يبحثون عـن الشمس، وحين سأله مقدم البرنامج :

- كنت أحسب انك ستقدم لنا عملاً آخر

- سيدي أنا الذى يختار ما يقدمه للآخرين في حيز مـن الوقت من المفترض أنه لى.

وتايه أيضاً يناضل في كلماته.... وكلمات جميلـة مـن خلف الأسيجة وبين أوراق الصبار، وأشواك دومـا نـاغزة للذاكرة، لتنتصب عليها وتقف في فضاء الأرض حيث تذكر من عجاون.... مجدل.... عسقلان.... بيت دراس.... عنب الخليل....

نظر إليها جابر محاذراً :

- أرى في عينيك الرفض والملامة!

تجيبه بنبرة صوت هادئة :

- من الشخصيات من يكونون إيجابيين وأنـت قريـب منهم، وبمجرد أن ترحل عنهم ينسون أو يتناسـون، وتظـل على اطراف ذاكرتهم البعيدة. لم يعلق على اجابتها ولكنه ظل سادراً في حواره معها لأحاديث تحمـل عنـاوين مفتوحـة لنهايات مفتوحة.

- جميلة ألا تذكرين ما نصحتك به السنة الماضية بـأن تقوى من لغتك الانجليزيه لتضعى يدك علـى منـابع الادب بلغته الأم وليس من خلال المترجمـات، وتتعلمـين حرفـة

الرواية.... وأظنك لم تكترثى بحـديثى هـذا.... تشـترين قاموس اللغه وتقرأين روايات باللغة الانجليزية وفى خـلال عام واحد تحصلين على نتيجة رائعة.

أرتسمت علامات الدهشة على وجه جميلة، وحرصت أن لا تخفيها عنه:

- ولم الانجليزية بالذات؟!!....

- الرواية وصلت لعالمنا من سنوات قصيرة، امـا هـم فخاضوا في غمارها منذ امد بعيد.

قاطعته متحفزة لكلماته :

- أنا أعرف أننا العرب الحكاؤون، نجيد فن القص ولنا تاريخ من عيون التراث أذكر لك مـثلا.... حـين سـألوا " خوسيه ".... لو حدث أن أنقطعت عن العالم في جزيرة نائية ماذا تحب أن تحمل في رحلتك هذه؟ قال لهم (ألـف ليلـة وليلة)، فتعلق قلبي بها، وبدأت أبحث عنهـا وأسـأل أيـن أجدها؟.... إلى أن جاءني بها عثمان دون مقابل من ورقات نقدية حيث قال لي كلمتين وصمت... هديه عيـد مـيلادك، حملتهم أرفف مكتبتي القريبة من سريري وكل يوم أو يومين

أشد جزءاً أقرأ فيه شهرزاد ودنيازاد.... السندباد البحري.... الأحدب والخياط....

ثم بدأ يحاورها عن مدينته التى تعيش في داخله، ويعيش فيها سواء كان هنا أو هناك، هو لا يحمـل معانـاة.... بـل يحمل مدينة غزة التـي تعـيش داخلـه ولـم تعـد لديـه مشكلة!!.... تركز جميلة في كلماته وكيف يمنطق ويفلسـف ما يحيط به، مدت إليه كتابها تراقب حركاته وكيف يتفحص بعينيه أوراقه.... غلاف مجموعتها القصيصـية.... يقلـب ظهر الكتاب تطالعه صورة جميلة، ويعود يقلب مرة اخـرى ليرى أسلاك واقتلاع وريح سموم.... شدته من يده لتفتح له على قصته " لا.. لا" والرفض وكيف رفض عز الدين أبـو صفية.... بدأت عيناه تتقافز على السطور، سطور الحكاية.. ومن سرعة القفز أدرك خطأ أن جميلة كتبت عنه، وأنه هـو الذي دعاها للتعرف على وجه من العراق، فعبس للسـطور قائلاً لها :

- ما هذه الجملة؟!!.... كان يجب إستئذانى حين كتبت.

- عفوا أنت لم تدعني للتعرف على هذا الوجه العراقي، أنا التي سألت عنه وبحثت بين الجموع عن مكان قـد أجـده فيه.

اعتدل في جلسة وزفر انفاسه :

- أنت تعرفين أن تحركاتي وأتصلاتي محسـوبة، وهـذا الوجه الذى كتبت عنه له تاريخ ومتغيرات في سيرة حياتـه ولم تغلق ملفاتة بعد.

ساد صمت وضباب من العـراق.... مـن فلسـطين.... مسافران حيث يلتقيان ليكونا غيمة واحدة، وغيث قد يروى ارضاً باتت بعيدة...تذكر كلمات قرأتها عن مـدن حجريـة خانت وجعلت من مبدعيها غرباء، وحيـدين، وهـم الـذين جددوا لها قلبها، وتاريخها، وخوف من اولئك الليليون وهـم يغرسون بوعي وبلا وعي خنجر صدئا فـى ظهـر وطنـا ممزقا.. ملامح وجه " الربيعي" الذي مازال يسـهر ويكتـب ويحترق من أجل نسمة هادئة تجدد رئة الوطن!.... وتتعذب وتشنق بحبل الإنتظار من أجل أن يغني طير جبلـي علـى أرضه.....

ولكنه يعرف كيف يغير من مجرى نهر ليصب في ناحية اخرى، ومجرى حديث مغاير.... حديث عـن المـرأة.... الذكورة.... الأنوثة... يقول لها :

- امرأة ورجل هما ضفتي نهر واحد.... وحين يعـوم أحدهما يسبح وسط هاتين الضفتين، وحين تكتب المرأه تكتب بكل كيانها وكل خلجة من خلجاتها.... تكتب مـن لواعجهـا واحتياجاتها الجسدية والنفسية التى يـتمخض عنهـا عمـل أبداعى، خلق جديد تكون فيه الجسد والروح.

حديثه عن مجرى النهر.... الجسد والروح .... حملهـا بعيداً عن مجلسه عن كلمات هو سادر فيها... ذهبت الـى مدينه تسمى " هنا" وليست مدينتها التى هناك....

أعطيت زوجى عشرين عاما بلا حدود، ولم أسـتطع أن أبنى لبنة في علاقة من خلال جسد أعطيه، وهو أغلـى مـا لدى.... جسدي وعاؤ روحى أنا.... وفي آخر المشوار كان اللا شيىء... ويوم تعبت وتقطعت أنفاسـى أنتحيـت علـى الطريق الطويل أفكر، لم اعط جسدى؟.. ولاجل من؟!! وهو الدره الحاملة لروحى الهائمة.... منذ متى وانا اعطـى؟.... ومتى أكف عن تقديم جسد بلا روح؟!!.... سأمضى بجسدى

الحامل لروحى هذه ولن أباعد بينهما ابداً ولـن أسـحقهما ثانية، بل أنا هى تلك الهائمة في فضائها العريض.... روحى التى تحب.... تهفو.... تعانق.... تفى.... تود.... تعطى.... وتدفق في جسدها وتسأل من أين يبدأ هذا الجسد؟! تتحـرك لها أطراف يدها ودم لازال يتدفق عبـر مجاريـه.... هـى أناملها.... التى تأتي اليهـا بأوراقهـا.... بقلمهـا تحصـن إرادتها.... تلك الأرادة التى تقبض بها على أناملهـا ومـن أطراف قدميها حيث تبدأ حركتها بكل عذاباتها ومسراتها.... تبدأ من هنا وبكف يدها تنتهي، وتبقى لها ملامح وجه تتغير أمامها كمرآة تتجدد لها.... تحيا.... تمـوت.... تعلـو.... تهبط.... تختفي.... لتبقى مرة اخرى....

وتعود لمجلسه ترفع عينيها تنظـر إليـه لتجـد نفسـها قريبة.... بعيدة... تطالع عيون المارة لتجد أن العالم يتسـع لها ولآخرين معها، تنهدت وأرخت جسدها على الأريكة.... زفرت فلم تعد تحتاج إلى هذا الآخر ليهدي اليها سعادة، بـل هي صانعتها، وكيف لها أن تستند إلى جدار الآخر لينهار بها ويأخذها إلى أغوار أرض تنسحق فيهـا، ودت أن تـنهض بقامتها ترفع رأسها تمد يدها الحاملـة لأصـابعها الخمسـة

متحدية.... متصلبة.... تمدها لمن يحتاج.... عطاءاً.... أما هي فلا تفكر في أن تحتاج إلى هذا الآخر الذي يتحدث عنـه في عناوين تخص عالم الذكورة والانوثة.

بدأت تسترد وعيها بالمكان وبمن يحدثها، تعود تستمع منه لما تبقى من أحاديث، ولكنه ألقى لها بسؤال يحمل اجابة :

- أتذكرين من أحبوك؟.... أم أذكرك أنا يا جميلة؟

- من؟!

- أحدهم أقام بجوار بيتكم لأجل أن يراك حين تمـرين ولو لدقائق

- لا أعرف عن هذه الحكاية ومن يكون هذا الشخص؟!!

- ألا تعرفين من أحبوك وهوت قلوبهم

- فلتقل انت يا جابر

- ....

كم من قلوب احبتنى وقلبى انا لم يزل وحيداً .

- وكم أشعلت من نيران.... لم أكن اتصور ان يحبـك اثنان من اخوتى في وقت واحد، حين يأويان إلى فرشـيهما

كنت أنت الحلم الذي تتوسده أجفانهما.... أي سر يكمن فيـك يا جميلة؟!....

أستوقفته عن تكملة حديثه :

- بل أنا سأكمل عنك باقى الحكاية.... غسان لاذ بصمته لم يصارح بحبه بل أكتفى بمراقبتي حين كنت أزوركم، يمر من أمامي ليختفي ويعـود يظهـر فـي حركـات سـريعة مرتبكة.... أما رائد فكان يروق له الوقوف في غرفة الخبيز بجانب الفرن مسندا كتفه ورأسه على الجدار ثم ما يلبـث أن يمضي تاركاً المكان، كان يعيش مشاعره كجمرات متقـده ولكنه ظل صامتاً لا يشاركنا حديثا بل مبتعداً بقلبه النابض بالحب، يداريه عن أمه وإخواته، ولكن وسع حبه مدينته التى ظل يهيم في شوارعها ويبـوح بالوجـد والشـوق علـى طرقاتها... غسان ورائد وثالث كان بينهما " بسام " حين كان يأخذ الارض زاحفا بجسده فى فناء الدار يشـرئب برقبتـه وعيونه ليكون أول من يراني أطل على أول شارعكم، فمـا إن يلمحنى حتى يعود زاحفا يمسح فناء الدار بجسده بلهفـة الفرحة الغامرة لينقل خبر وصولى لمن بالدار.... كنت آنس بوجوده وبصحبته، بنقاء قلبه وصفاء نفسـه.... بسـام هـو

الحب الذى غفلت عنه.... اما من تذكرهم أو ما تبقى مـنهم اين هم؟!! وكيف حافظوا على حبهم؟!!

- ليس كل حب ينتهي بالزواج يا جميلة، في ذلك الوقت لم يكونوا مهيئين للارتباط بل عاشوا مشاعرهم الحقيقية

- أتعرف أن مشاعري الحقيقية وحبي الاول كـان مـن المخيم.... مخيم أحببته.... ولن أنساه " الشاطىء " أقـرب إلى امواج غزة الهادرة.... وقريب من باخرة جنحت علـى شواطيء مدينتنا فعلاها الصدأ وغاصت في ترابها، أعتمـت وانطفأت أنوارها التي كانت تحمل أحلام عيون من المخـيم حين تشق عباب بحرنا حيث مسيرة طويلة وبعدها وصـول إلى مرفأ أمان، هذه الباخرة تذكرني بحالي حين كفت الـريح عن ملاحقتي وتكسرت قلاعي على شـاطىء غـزه قبالـة المخيم، هو أول حب.... حب لم تقبله أمى لـم يعـرف بـه أبى... عرفت به إخواتي حين وقفت أمي رافضه لم أعـرف لماذا بكيت!.... لماذا لازمت الفراش لأيـام، كـان فراشـى بجانب الجدار الذى ظلت عيناي شاخصتين عليـه لا ألـوي الالتفات حولي، لا أرغب في الوقوف على قدمى لأرى عالماً غير عالم المخيم، لم تسعنى حديقتنا... ولا غرفتى.... ولا

سريري ولا دفء وحضن امي بل وسـعتنى احلامـي فـي المخيم.... لم لذت بالصمت وكويت جرحى بالنار ورحلـت الى عالم أهب فيه الجسد دون الروح؟.... رحلـت دون أن أعرف ماذا تعنى كلمة مخيم ومن هم الساكنون بين حوائطه، لم أكن أعرف سر الحكاية وبدايتها ومأساة النهايـة، وحـين عرفت تجرعت مرارات العالم.... لو كنـت أعـرف لمـا رحلت... بل كنت بقيت معه، امد يدى إليه.... قد أمسح بها دمعه.... عرفت المخيم وكيف زحف الشـتات الـى أرض غريبة وسمى مخيم.... ولم هو باق إلى الآن؟!.... وكيـف دلني قلبي على هذا الحب من هناك.... لأحمله معي هنا.... حيث قلب جميلة الذى لازال حيا لم يمت.

دمعت عينا جميلة حين تذكرت كيف تـاه عنوانـه مـن مفكرتها وكيف لكلمات تسافر إليه فسافرت إلى امها.... حتى تلك الكلمات باتت حبيسة في خزانه امها ولم تصل إليه حيث محطتها الاخيرة.... دمعت جميلة لزمن الجفاف والنضـوب ولكلمات لها ستظل منفيه لن تزهر.... لن تينع.... لن تقطف ثمارها.... أصوات المارين بالبهو أيقظتها من غفوتها، وجوه الواقفين حاملين فناجين قهوتهم حيث تضيق المسافات بـين

الرؤوس لتقترب الحكايات ويسرى دفؤها ولكن ظـل وجـه موسى الغائب عن هذا الحفل... تلف المكان باحثه... تسـأل ربما تجده واقفا أمامها كما جابر.... هناك يقف فخرى صالح أنه رئيس تحرير الجريدة إذن قد تجـد موسـى، نهضـت تستعجل الاقتراب منه لسؤاله :

- سيد فخري مرحبا
- جميلة اهلا اهلا
- أين موسى؟
- مع الأسف لم يمنح تأشيرة دخول .

الفصل الرابع

قارورة عطر

في جلسة الختام من حرية التعبير أعطيت الكلمة لممثـل دولة عربية، ترمقه جميلة وتتابعه بنظراتها من لحظة قيامـه من مقعده حاملاً أوارقه، تصغي لكلماته من مقعـدها فـي الصف الأخير، تصغى بكل حواسها لذلك الصـوت الرنـان بلهجة عربية، تحدث عن حرية الكلمة وفك الحصار عنهـا، كسر قيودها، فتح البوابات الموصـدة.. عـودة المبعـدين.. المنفيين على حدود الكلمة.. حيث كانت الكلمة هي المنفي.. علا صوته وبدأت تسري في أذنها مخارج ألفاظـه منمقـه رنانة واضحة :

- لتفتح حرية التعبير كل الحـدود المغلقـة،لا لعـودة الجثامين إلى أوطانها حين تسكت أقلامها، فيوارون في ثري اوطانهم التى ظلت منفية.

ظهر لجميلة وجه " عبد الرحمن منيف " يقترب منها وفي عينيه سفر طويل ولكن دون أن يحمـل زاده فـي رحلتـه الطويلة.. دون أن تكبش يده حفنة تراب،بل ظل رحالاً مـع القام والكلمة.. مدن الملح.. أرض السواد..نزار حين لفه علم وطنه البعيد ليسجي في مقبرة ضمت أمه وأخته نامت أهدابه ورحلت نظرته بعد الانكسار إلى عالم ليس له مدى ولا حدود للكلمات..عالم الكلمات فيه سابحة في فضـاء تبحـث عـن صاحب لها يدلها.. ولكن حين آن وقت الرحيل هـل تـدمع عين جميلة؟ تمسك اللحظة قبل أن تنفلت منها..يضـيق بهـا مقعدها تتلفت حولها تنظر أمامها وخلفها تتفـرس الوجـوه التى تحمل ملامح قد تستطيع قراءتها " نعمـة خالـد" تلـك الفلسطينية التى ضمها مخيم اليرموك كانت كما جميلة تتلفت حولها ومن أمامها تدور بعينيها تبحث مثل جميلة عن وطن في عيون لازالت تحمل دفء الحنين، نعمـة الجالسـة فـي المقاعد الأمامية لا تستطيع جميلة الوصول إليها ولكنها قريبة منها حين تصافحتا وضمتهما أحلامهما المسافرة لوطن لهـن هناك.. وكلمات نعمة لجميلة :

- سمعت عنك، وفرحة أنا بلقائك وستكتمل سعادتي حين تأتين إلى دمشق وتشاركينا بعضا من نشاطاتنا.. ولكن فـي ضيافتى في بيتى في" مخيم اليرموك "

كان الوقت يمر سريعا تتداركه نعمة وهى تعتلي درجات تؤدي للقاعة، يدها بيد جميلة وبكلمات متلاحقة قالت لها :

- إليك بعنواني ولتعلمي أن صندوق بريدي مراقب وهذا لن يمنعنا من التواصل اكتبي لي.

كانت قوة تشع من عينيها الفلسطينية.. روائية.. وقصاصة وتعمل في تحرير جريدة، تصل الليل بالنهار.. لمست بدفئها قلب جميلة وتلفتت لفتاتها، أما " فيصل خرتش " ذلك الروائي الحلبي بعد أن ناولته جميلة أعمالها من الرواية والقصة لـم تعد له آذان تسمع ما يدور من تداخلات.. تأييد..اعتراض.. بل كانت له عينان تثقبان الكلمات كعين صقر يـنقض علـى حروفها..عناوينها..يقلـب..يـتفحص الصـفحات غارقـاً فيها..وحين قذفت بهم القاعة خارجاً كان جبـار ياسـين.. لعراق..بغداد يقف بجوار الرجل صاحب الكلمـة الختاميـة، تذكرت جبار واعتراضه حين ينادونه بأستاذ حيث يقول:

- كيف أسمى جباراً ويلصقون بى الأستاذية إنـه حقـاً أمر مضحك!!....

جبار الذى يعيش في فرنسا لأجل الكلمة التى ألقـت بـه على حدود المنفى لتأتي به فـي حريـة التعبيـر.. يحمـل العراق.. بغداد بين جوانحه، ومن مطار بغداد ودع وصـافح أيد لم تكف عن الكلمة،يقف اليوم يحادث صـاحبه، مضـت نحوه جميلة مصافحة، عرفه جبار..

فرد الرجل محدثا لها :

- سمعت بإسمك.

ردت مندهشة :

- أنا!....

أجابها بلهجة واثقة :

- نعم

- أظنه اسم أخي.. ماجد

- بل انت

- هل لديك أعمال جديدة؟....

ناولته روايتها الأخيرة ومجموعتها القصصية، دقق وقرأ عناوينها اعتلت وجهه مسحة سرور قائلاً :-

- حسنا، سأقرؤها في الطائرة في طريقي إلى تونس
- تقيم في تونس؟....
- نعم.. أنت رقيقة جداً
- أشكرك
- عطرك رائع الذى تضعين.
- معذرة لم أنتبه لما قلته؟....
- مرياج

إندهشت جميلة وزاغت عيناها واشتد لمعانهـا تتفـرس ملامح رجل نطق بأجمل الكلمات في كلمة الختام وحين وقف أمامها واقتربت ملامحه منها محدثا لهـا ممسـكاً بكلمـات كتبتها في ليال طويلة وفجر تتفجر أحلامها معه.. لـم يـنس اسم عطر تعطرت به، في حين نسـيت لحظـة تمـد يـدها لقارورة عطرها لأن تعرف إن كانت هذه أم تلـك.. شـدت خطوتها خارج البهو وكلمة "مرياج" تطن في أذنها تود لـو تطير إلى حجرتها لتنظر تلك القارورة وتقرأ ما عليها هـل

هى أم.. وحين وقفت أمام مرآتها وعلبـة حليهـا وآنيـات عطورها مدت يدها ترفع إحداها إليها لتقرأ ما عليها فكانـت هى " مرياج " ارتعشت راحتها وأسرعت تعيدها أمام مرآتها منتحية طرف سرير تجلس عليه، تفكر فـي هـذا الرجـل صاحب الكلمات الواعدة التـى حملـت أحـلام المتعبـين.. المنفيين عن أوطانهم.. وكيف تشمم عطراً تجهله؟!....

الفصل الخامس

حـاتم وجميلـة

استسلمت للزمن الزاحف على عقـارب سـاعتها ولكـل الأحداث التى مرت بها، مارغبته وما عافته.... حين التقـت الوجوه، ماتت ذكريات ولوحات لها تحاول أن تجد مسـاحة في حدود اللا مكان، قادتها بداية لخيط تمسك به، من خيوط قديمة نحلتها حرارة الشمس،بقى طرف خيط جمعتـه فـي لقائها به، حاتم صاحب الوجه المشرق دوما بإبتسامة حيرت قلوب النساء، وجلوسه فارداً ساعديه على ذراعي مقعـده، يزفر بأنفاسه قائلا لمن يجالسونه :-

- نعم وسيم الملامح أنا، طلعتى بهية، وحين تحـاولون بعثرة ملامحي لن تجدونى وسيماً ، أنا كما ترونني هكذا.... آخذ لب النساء وأمتلك حواسهن حين يلتقين بي

تسمعه جميلة يردد كلماته في زهو، تنتابها نوبات الخوف ويزداد شعورها ببعد المسافات ما بينها وبينه، لم تكن تعرف

معنى الخداع بالكلمات، والانقضـاض بمخالـب الأسـود، والتسحب.... والإلتواء... إرتداء جلد الثعابين.... هى كلمات تفهمها كما تسمعها تصبها في قوالب معانيهـا الثابتـة فـي ذهنها، وهاجس كامن في أعماقها أن تسمعه من هذا الحـالم، أن ما تسمعه من شباب بلدتها الذين عاشوا الصمت والكتمان، وأروع لغة يمتلكونها هى لغة العيون حين تبث الجوى وتبوح عن الهوى.... كلماته جديدة.... يغلفها الزهو والغرور... لا تعرف.... ضعيفة أمام تجارب الحياة المروعة.... تسـتحث ذاكرتها وقواها، تجمع كل الصور في مخيلتها فـي رحلـة يحملها القطار فيها من محطة" سيدى جابر" إلى"رمسـيس"، تحاول أن تجلو بعضا من الصدأ المتـراكم علـى ذكريـات غائرة.... تعود تسأل نفسها :

- هل تغير؟.... هل ستقودنى عيناى إليه وأعرفه.... قد تكون سمنة هو غارق فيها أو يعانى من اختفاء شعره الـذى كان دوما يتحسسه براحته حين تطيره نسـمات شـتائية.... تزداد حركتها في مقعدها، ولفتاتها نحو زجاج النافذة محاولة أن تكشف عن ملامحها.... أدركت موجـات الـزمن التـى تقلبت عليها.... وأنه سيدرك مقدار عبث الزمـان بهـا....

تنظر وجهها، ترفع يدها تتحسس ملامح باهته، أنفهـا كمـا هو.... وعينان عميقتان لهما أغوار لا تـدركها.... حـزن ساكن فيهما.... ترقب حركـة كتفيهـا وقميصـها القطنـي بأزراره المستقيمة، تمد راحتها تعدل من ياقتها وكأنها تهـم لدخول مكتب أحد المديرين.... يعود إلـى أذنهـا صـوت الارتطامات الحديدية، وصفير القطار يذكرها أنها لازالت في الطريق إليه.... تمد قدميها تحاول أن تجلـس فـي وضـع الاسترخاء.... تستسلم لمزيد من الخيالات والأفكار المستجدة عليها... تشد قامتها قليلاً ، تعدل من جلستها، تنظر حـذاءها المدبب، ورباطه المتدلي على جانبي الثقوب، تضع قـدميها فيه للانطلاقة التى تجتاحها، حيث أتون تمضي إليه.. وروح مقاومة عالية لم تغادرها بعد.... يرتفع لقصبة قدمها، نـوع من الأحذية يروق لها.... وتعليقات صديقاتها :

- أنها لا تمت للأنوثة بأيـة صـلة.... أيـن الكعـب العالي؟!.... والدلال في الخطوة و.... و....

تتذكر ردها عليهن :

- لا أتخيل المشي بتلك الاحذية النسائية العالية، ستكون مشيتي مضحكة

نعل واطىء، إعتادته لسنوات طويلة.... ترحل بعيداً .... تشدها مسافات يقطعها القطار معها.... يتنصل قطارها مـن كل ما يعبر به.... له غاية واحدة هى الوصول إلى محطته، يحمل معه أحلاما مسافرة.... أجساداً منهوكـة.... عيونـاً دامعة.... طموحات يتقاذفها ضباب الطريق المتقطع من على المصارف والقنوات.... جسور تؤدى إلى مساحات خضراء تلم كل الأحلام قبل أن تتطاير فزعة من صـوت عجـلات حديدية فوق قضبان ممدودة لها.... تمد راحتى يديها أمامهـا تمعن النظر فيهما.... تقلبهما تطن في أذنها كلمات حاتم لها:

- لم لا تطلين أظافر يديك كما زميلاتك؟!....

تتعلثم في اجابة لا تعرف من أين تأتي بهـا!.... مـاذا تقول؟.... حين كانت تقف أمام أبيها حاملة كتابها، تشير لـه على كلمة تسأله معناها، كان يمتنع عن إجابتها مشيرا إلـى إصبعها والطلاء الوردي الذى لونت به أظافرها قائلاً لها :

- لن أجيبك إلا حين تزيلين ما على أظافرك من طلاء، وتقصينها عن آخرها.

وذهابها عنه خجلة، لتبدأ فى ازالة الطلاء وقص ما طـال من أظافرها.... تلـك حيـاة اعتادتهـا وأحبـت كـل مـا

فيها...عمل.... مثابرة.... جلد وقلة اهتمامات قد تشغل بال نساء كثيرات، وحاتم لم يكف عن ابداء ملاحظاتـه بطريقـة التفكه لطبيعة جميلة التى تثير الدهشة في نفسه وحديث أبيها لأمها حين تلومه على خشونته في تعامله مع أبنائه فيجيبهـا قائلاً :

- هم حواف الصخور.... ولازالت حـادة.... وحـين تتقاذفهم دروب الحياة الوعرة تنعم تلك الحواف من خبطـات التجارب التى يجب أن يخوضوها ويستعدوا لها.

بدأت سرعة القطار في التباطؤ، لتقترب الصور والمشاهد أكثر.... ومسافرون يتأهبون في لم حاجياتهم وسط مـرور النادل بينهم يتفقد حساباته، وهى بدأت تستعدل جلستها فـي مقعدها تتجاذبها علامات الإرتباك، تحاول أن تشغل نفسـها بترتيب أشيائها، فتخفف من حدة توترها، واقفة على درجات المحطة.. يطالعها رمسيس، تصعد إليه، تلمس قدماها أحجار الجرانيت التى سطحت بها أرضية الطريق، تـود أن تـراه، تتأمله، تلتقط منه أول خيط لعهد مضى، ووقفة صموده أمام الشمس تحت وهجها.... ملك الحيثيين يوم وقـف أمامـه، أشار له رمسيس قائلاً :

- أنا من يستطع أن يرسم حدود مصر حيث أشاء علـى ظهر البسيطة...

يقف رمسيس.... وتقف جميلة تتأمله، قدماه العملاقتـان وانبساطهما على الأرض دون نعل يلمهما، يخنقهما، تنظـر حذاءها وكيف نحلته مسافات طويلة سارت عليهـا، وأنامـل قدميها حبيسة تئن من فقد حريتها.... رمسيس.... جميلة.... والحياة.... حيـاة تنـبض حولهـا.... ذاهبـون قـادمون، متحاملون.... معذبون.... آمال تتقافز من العيون.... نهـر يحتضن أماني عزيزة بعيدة تقطعها صفارات القطـارات.... أصوات الحمالين....الباعة الجائلين.... تنظر ساعة يـدها، أرقامها كبيرة واضحة، عقاربها تضـيىء، تتحفـز للثـوان وتخشى الدقائق، تحتضر للساعات التى تمر دون جدوى.... تسأل نفسها :

- هل حان الوقت؟.... حيث وجهتى التـى أقصـدها.... وجه جاءنى من سنوات الماضى البعيد... سرحت بنظراتهـا الموحشة في وجوه المسافرين.... القـادمين.... والقـاهرة وهى.... وضباب كثيف زاحف إليها.... وهل تضل الطريق فيها في يومها المسافر؟!....

تثقل رأس جميلة أحمال الذكريات.... محطـة رمسـيس وسقفها المنحنى لمربعات زجاجية مفرغة.... تغمـض لهـا عينيها لتعود إلى قطار الزمن الماضى عنهـا وجـه حـاتم يقترب منها، يجلس بجوارها في قطار كالذى حملها اليـوم، يومها تمنت أن تريح رأسها على كتفه وتغط في نومها ولكن حياءها كان يصدها.... يعيدها إلى ذات تأبى بأن تأتى ما هو غير مألوف لديها.... يومها كان متجها إلى رمسيس كما هى وجهتها....إلى مكتب التنسيق الخاص بالوافـدين ومتابعـة اسمها بين الأسماء.... وكلمات أبيها إليها فـي رسـالة لـه عبرت القناة.... يؤكد ويصر على أن تحـول اسـمها مـن جامعة الاعلام قسم الصحافة إلى دراسة القانون وعبارة له تلاحقها :

- بأى حال دولة ستنطقين؟!!.... بإسم من ستتكلمين يـا جميلة؟!.... وأنت هناك.. ونحن هنا على الأرض دون دولة نكتب فيها أسماءنا... قضيتنا هى قضيتك فلتبـدأى بهـا.... الأرض لها دين عليك....

في محطة رمسيس تقف حيث وجهة لها ستغيرها.... أما هو فكانت غايته سوق الموسكى.... خان الخليلى.... سـوق

السلاح.... ليتناول مبلغا مرسلاً له مـن أهلـه.... قطـار حملهما واعادهما على نفس رصيف المحطة وسط قطـارات أخرى وحاتم وعودة له إلى بيروت ما بين شرقية وغربيـة وقتال دائر من بيت إلى بيت وقدر يلقى بجميلة حيث هنـاك وسط طلقات الرصاص ومشاهد ثقوبها على جدران المنازل ومداخل المدينة، ميليشيات على الحواجز تستوقف المـارين تطلب بطاقاتهم، يقرأونها ليعرفوا من أين يأتون من شرقية أم غربية، وحين التقت بصديقه يخبرها بإصابة حاتم بالتهـاب رئوى أقعده في الفراش، آثرت الذهاب إليه وفى يدها ورقة كتب عليها عنوان من حارة الى حارة ضيقة الى أزقة تؤدى إلى ملك الحوت في بيروت، ترافقها زوجة أخيها وانزعاجها من رحلة البحث عن عنوانه أمام إصرارها على الذهاب، في رحلة الترقب والتوجس أمام حواجز الكتائب، قـد يعتـرض أحدهم طريقهم وقد تكون ميتة جماعية.... تصل وسط كـل هذا... تقف على عتبة بيت غارق في العتمة إلا من إضـاءة شاحبة تظهر على حواف درجات اعتلتها قدماها.... تضغط على مكبس الجرس، وعين سحرية تطل عليها تقول لها :

- لا أحد

تعاود تضغط ثانية على الجرس

- لا أحد

- ....

وصوت فيروز يثير شجنها وكلمات أمها لها

- كم أحب فيروز حين تشدو

" لا تندهى.... ما فى حدا "

تعود أدراجها ممسكة بمسند الدرج، تدقق في حوافه التى أظلمت، إلا من نور شاحب يرقب خطوتها.... وزوجة أخيها تقف حينا وتلف حول السيارة حينا آخر، والسائق والمرافقون حولهما ينظرون الطرقات البعيدة والقريبة بحـذر وترقـب لعودة الصبية، تقف تنظر اليهم تود لو تنادى وتقول لهم:

- لا أحد

- ....

حين التقت به لم تسقط ابتسامته من على وجهه بعد تلـك السنوات الطويلة، يجلس متهدلا، تنساب كلماته اليها، يرجـع بماض، لم يفارقه... نظر اليها يتفحصها بعينيـه الضـيقتين

الضاحكتين، وبحركة خفيفة يهز رأسه يحاول أن يؤكد لهـا أمراً هو يوقنه جيداً:-

- كما أنت لم تتغيري..

عاد يكمل سرده وهو يبتلع بقايا من شراب مـثلج أمـام صمتها المطبق.

- أتدرين.... لمحة الجدية لم تفارق وجهك.... ملابسك وبساطتها....

وما ان نظر إلى حذائها حتى أكمل ما بدأ به :

- لم تحاولي ان تغيرى في نمط أحذيتك؟!.... سـنوات طويلة وأراك كما أنت!!.... لماذا؟....

ردت بحزم تغلفه الصرامة :

- جاهدت طوال سنوات مضت لأن أبقى كما تراني، لا أن يصيبني تغير تشيخ فيه نفسي، لازلت واقفة.... وتلك هي مقاومتي الوحيدة التى أمتلكها.

لم يقف عند كلماتها بل واصل حديثه :

- أتدرين حين صارحت صديقي بحبي لك، لم يكتـرث لمصارحتي يهذه، تخيلي بماذا أجابني؟!!....

تجلس تستمع له هادئة ساكنة تراه ممسكاً بمطرقة يـدق بها على كيانها كله، فلا حيلة أمامها سوى الإنصات إليه.... بعد دهر مضى يعود إليها يحدثها.... كلماته الآتية إليهـا لا تستطيع صدها أو إرجاعها.... تحاول أن تكمل قراءة الأمس فيه وهو سادر في سرده

- يداك قال لي عنهما، أنهما لا تمتـان لأيـدي النسـاء بصلة، وتعجبه منى أننى لم أنتبه لهذا الأمر.

يقهقه ضاحكا مستمتعا بتلك اللحظات الآتية اليه، يحملهـا قطار القدر في لقائه معها.... ارتدت نظرتها المثبتـة علـى ملامح وجهه لتغرسها على راحتيها، تلم أطراف أناملها فـي قبضتها لتطلقها مرة أخرى في عناق، أناملها التي لم تخـذلها في رحلتها الطويلة، كف يدها المقلمة الأظافر، الخالية مـن الطلاء.... يفرد جسمه مسترخيا، مواصلا في نشوة حديثـه إليها:

- لازالت صورك في بيتنا هناك في بيروت مخبأة لدى أمي، كلما أحببت النظر إليك، أذهب إليهـا وأختلـي وتلـك الصور.... صور صاحبة الجدائل المسدلة على كتفيها

تهدأ دفقة الحديث وتتسحب معالم جادة على وجهه.

- ألا زلت تقاتلين؟!....

- ....

تعود اليه ابتسامته، فينطلق منها مرة أخرى

- أذكر يوم جئت الى بيتنا في بيروت، يومها لم نفتح لك الباب، كنا نطل عليك من خلف العين السحرية، وسط خوف تسلل الى قلوبنا من أن نفتح لك بابنا هاها....

يتوقف قليلاً وسط صمت جميلة المطبق على كلماته

- جئـت بـالحرس والمـرافقين، يحملـون رشاشـات الكلاشنكوف وبزات عسكرية.

عشرون عاما لم تعرف جميلة أن حاتم كان وراء البـاب في الحارة الضيقة من آخر الزقاق مـن ملـك الحـوت.... كلمات أحدثت ارتطاما.... دويا.... صـاعقة هـوت علـى براءتها.... راودتها ابتسامة بللت شفتيها المرتعشـتين مـن ارتعاشة قلبها وانعتاق روحها....

يمد يده لعلبة دخانه، يسحب لفافة يشعلها، تلم جميلة رماد أنفاسه المحترقة التى باتت هى العدم في وجدانها.... عائـدة الى محطتها.... لتقـف أمـام رمسـيس تنظـر اليـه....

طريقها.... محطتها...و طريق طويل أمامهـا.... وكلمـات تطيرها نسمات خريفية :

- صدقيني يا جميلة انني أحببتك.... ولا أحداً سواك.... سواك....

لم تعد تشعر بكلماته.... لم تعد تحسها.... رمسيس وهي عود اقتلع نفسه على أرض الغربة هنا.... ودفء كلمات قد تكون هي الحقيقة من هناك....

الفصل السادس

الصيف الأخير

قد يكون هذا الصيف هو الأخير، أم أن كل صيف يـأتي علينا نحسبه هو الأخير هل هي قدم " نبيل عمرو " حـين فجرت شرايينها طلقة دمدم وتفتت لحم كان يكسى عظمها.... هل هو الصيف الأخير لرجل يسير على قدميه ثم يجد نفسه بقدم واحدة يدق بها على الأرض، كانت أحلامه دوما تسـبح من خلال حنجرته الساحرة لتسافر إلى أبعد حـدود الأرض، تتعلق على حواف أسلاك نافرة تنغزها فتصـاب عليهـا.... ولكن الأصابع تشير نحو صاحب الصوت الحالم المضـمخ بالشجن.... تشير إليه حين صافحها وتفرس ملامح وجههـا الفلسطينية ومضى بها في شوارع بيروت.... حين كانـت شرقية.... غربية.... مضى بها زمن لتدرك وتعي ماذا يعني هذا الانقسام.... في بيروت الغربية أجلسـها فـي الغرفـة الزجاجية وأمامها الميكروفون، ألقى لها بورقـات مكتوبـة

لتلقي نشرة الأخبار حيث آخر حدودها جنوب لبنـان، سـمع صوتها.... علمها كيف تنطق الحروف وكيف تعلو بالصوت وتهبط به وأين تقف وكيف تبدأ،

و حكى لها عن أحد القادة الذي لم يكن يشـرب فنجـان قهوته إلا حين يسمع صوت مذيعة النشرة، وحين يتوقف عن إشارته إليها يشخص في أوراقه ويرفع عينيه نحوها قائلاً :

- أنا تدربت على يد قائدنا، تلميذه أنا وكم أود أن أكون نجيبا

نبيل عمرو... هو.... نعم وجهه يذكرها بملامـح وجـه أبيها.... بشعره المنسدل، بقسمات وجهه العربية يذكرها نبيل بكل هذا وهو لا يعرف، لازال لا يعرف إلى الآن.... حيث الصيف الأخير الذي يرقد فيه على سرير في مستشفى ينزع عنه لحمه المتفتت من رصاصه دمدم... نسـى جميلـة.... ونسى كلمات قالها لها.... ولكنها لازالت تذكر كـل كلماتـه التي ربما ذكرها في أيامه الأخيرة فأصابته رصاصة تحاول اقتفاء أثر الكلمات لتقتلها، تقتل الكلمة.... أو كلمات قد يكون نطق بها.... لم تنس جميلة أول بيانات بثتها بصوتها لرجال المقاومة، كتبت بيد نبيل من غرفة زجاجية، نبيل يرقد فـي إحدى مستشفيات ألمانيا التي لم تعد جميلة تعرفها شرقية....

أم غريبة فالخطوط تبعثرت والأرقام اندثرت، أرقام تود لـو تعرفها لتصل إلى أذنه، كلمات تقولها له: أنها لم تنس.... بل لازالت تذكر في هذا الصيف الذي ربما يكون هو الصـيف الأخير.... وهل كان يعرف نبيل أن في صيف كان الأخيـر رحل القائد وظل مسافراً دون تذكرة عودة، هو جرح أصابنا ولكن قد تكون مساحة من الأمتار نتحرك من خلالها ونضمد جراحنا ونحتفظ بالرصاص لمعارك الغد أو معركـة اليـوم، فمن لم يعودوا على قيد الحياة يبقى منهم شيء ينتقـل إلـى المستقبل رغم غيابهم الأبدي، فجزء من طاقـاتهم الحيويـة وعقيدتهم الراسخة لم تمت معهم في صيف كان الأخير.

****

لما حملت تانيا حين عبرت الحدود إلى الخليل، إلى" دورا " إلى أرض البستان.... كبشت ملء راحتها تـراب الأرض لتحمله إلى عمتها على أرض الـوادي.... وحـين قطعـت المعبر كانت تتلفت مذعورة محتضـنة حقيبتهـا خافـت أن يلاحقوها حين يشتموا عبق الأرض المسـافر إلـى أنفـاس لاهثة، تتشممه حين عبرت منفذ رفح البرى، التقطت أنفاسها ودست جواز سفرها الكندي الذي به.... بـه فقـط كانـت

تتخطى الحواجز، وأخرجت جراب تراب الأرض تتفحصـه بنظراتها الفرحة حيث ستحمل الهدية إلى عمتها التي لم تكل الانتظار في صيف قد يكون الأخير....

****

الصيف الأخير.... لقاب جميلة الذي عذبته الوحـدة.... هل يأنس قلبها إلى الرجل الذي لم تره بعينيها.... بل رأتـه بقلبها.... رأته في كلمات.... في شجن لترنيمة حب وطـن يعيش داخلهما، هل يرحل قلبها إليه أم يأتيها قلبه مـن بعـد سفر وغياب.... هل هذا الصيف الأخير.... لحدود الكلمات المرتعشة الوجلة.... الخائفة حيث شمس.... نهار وظل.... دفء.... ووجد وشوق على أطياف الـ ذكرى العائـدة مـن طوال اغتراب.... ليده الممدودة إليها.... قد تضمها.. مـع ذاك الرجل الذي لم تلتق عيناها به في صـيف قـد يكـون الأخير.

****

وفى حفل تأبين لصيف كان الأخير.... وحضور الوفود من الحركة الوطنية الأردنية.... اللبنانية.... مجلـس السـلام العالمي.... اليمن الديمقراطية ومنحه وسام الثقافـة، يجلـس أبوه في صفوف أمامية، ربطة عنقه سوداء.... كالتي يربطها وهو واقف في ساحات المحاكم العسكرية.... رغـم الآلاف المحتشدين في القاعة إلا أنه كان هناك لازال واقفا يحسـب الدقائق ليعبر النهر، هو يعرف أن قرار منعه من السفر قـد يتأخر دقائق قليلة يكون هو قد مر فيها ليحظى بموعده مـع ابنه الذي غاب عنه عشرين عاماً.... لتـأتي لحظـة اللقـاء ولكنها لحظة لا تمتد فيها الأيدي تصافح ولا تـَلـُم الصدور في أحضان دافئة.... هو موعد مع غائب.... يعتمد بطاقـة غيابه بطول عمر الدهر الطويل.... وهل يستطيع أن يـذيل توقيعاً باسمه على بطاقة رحيل لابنه دون عودة.... وكانـت تلك الدقائق التي اشتاق لها، يسرقها من عيونهم، من كيـانهم المزروع على حدود حزينة لذلك الفارس الذي عبر منها ولم يعد إليها.... هو شارد هناك غارق في تعاسة زمنـه العاقـد عليه بربطة عنق سوداء.... يفيق من سفره الطويـل حـين اقترب منه نبيل عمرو هامساً.... يترك مقعده يتبعـه إلـى

زاوية خلف المنصة، ونبيل منهمك بوجهه المعروق يخـرج ورقة ضمن كومة أوراق في يده قائلاً :

- إليك بهذه الورقة.... كتبتُ لك فيها كل ما سيقال فـي تلك المناسبة، حين يأتي دورك وتتقدم المنصة.

ابتعد عنه قليلاً مربتاً على كتفه وبلهجة حانية وشوشه :

- تشجع يا أبا الشهيد.

ارتد عنه قليلا يفرد قامته أمامه بملامح وجـه غائضـة، ليمد نبيل يده ويأخذه متأبطاً ذراعه خـارج القاعـة حيـث الأبواب تفتح وتصفق، على من يدخلون ويغادرون، ومـا إن وقفا وكان الوجه أمام الوجه حتى أخرج من جيـب سـترته الورقة التي دسها نبيل فيه، وأخذ يقطعها أجـزاء صـغيرة وألقى بها تحت قدميه.

- أتكتبون لي أنا كلمة أرثى بها ولدي؟!....

ولوى حيث مقعده يجاوره الرئيس و.... و.... وأين هو منهم؟... هو لازال بعيداً.... حيث هناك.... أين هو منهم لم تعد لديه إلا كلمات تطحن فؤاده المكلوم حيث يفيض البركان بحممه.... يود أن يلقى بها لتشتعل الأرض وتلقـى بـذور

الثورة فيها.... وما إن سمع اسمه في مكبر الصـوت حتـى تقدم إلى المنصة.... وبدأت أجهزة التسجيل تلتقط كلماته :

- نركب سيارات فارهة.... نبني القصور.... نلبس من صناعة الأزياء العالمية.... وتبغـون الأرض!!.... الأرض لن تحرر هكذا.... لن نهدر كرامتنا ونصـدق بـأن عـدونا الأوحد هو إسرائيل، بل هـي أمريكـا، وحلـف الأطلسـي مجتمعين.... هم أعداؤنا الحقيقيون.... أما نحن....

ولم تكتمل حدود جملته حتـى عـلا التصـفيق القاعـة، وضربت راحات الأيدي تشد على كلمات نطـق بهـا، ودار الحكي عن ذاك الفارس من هذا الجواد، ومضى أبو جميلـة حيث الأرض التي جاء منها.... تاركاً فوهة بركـان مـن كلماته تتجرعها آلات التسجيل.

***

دقت جميلة الأبواب بعد مضى سنوات تسأل عن كلمـات لأبيها التقطتها آلة التسجيل.... فتح لها باب وأوصد باب.... قالت لها تلك المرأة:

- أنا لدي شريط يحمل كلماته كتب عليه التـاريخ وفيـه الكلمة.... ولكنى بالأمس فقدته، فتشت عنه، تعبت من البحث لم أجد شيئاً!!....

قاطعتها جميلة :

- لا تقولي أنك لن تجديه، هو موجود، ثلاثة وعشـرون عاما في بيتك على أحد رفوف مكتبتك واليوم كيف يضـيع منك؟.... أين يمكن أن يكون إذن؟!....

- لا أعرف.... أنا منزعجة لفقدانه.

ردت جميلة بلهجة متحدية واثقة :

- لكنني لست منزعجة لأنه لم يفقد.

أوصد باب وفتح طريق لأقدام جميلة التي لا تتوقف على الطرقات المسافرة تمسح دمعـة.... بـل دموعـاً تحـرق وجنتيها.... "هل يعقل أن يموت أبـي مـرتين؟!! لِـم أماتته تلك المرأة للمرة الثانية؟" تهتز لها فروع الأشجار تضمها تحوطها.... تميل نحوها....

- ألا يا جميلة رددي ورائي كلماته التي لم تنسـها.... الأرض هناك.... والطريق يتسع للجميع ولكن دون سيارات فارهة وأرصدة بنكية بالدولارات وأزياء باريسية، رددي يا جميلة ولا تنسي، هم هناك.... وحاف الأطلسي معهم، وأنت هنا لازلت تبتلعين المسافات لأجل الوصول حيث هناك.

الفصل السابع

طائر الشمس الحزين

حين سمعت صوت جميلة صوت " تمام " على الهـاتف، تطلب منها موعداً لزيارتها ولمعة فرح تطل مـن عينيهـا، لفرصة تأتى إليها وترى " إسماعيل شموط " في رحلة مـن مسقط رأسه اللد إلى غزة مياهه.. مـن وادي " زانـداس " الملون ماؤه بتراب فلسطين.. مياهـه هـادرة.. غاضـبة.. تحرك حجارة وصخوراً مـن أعماقـه تحملهـا إلـى وادي غزة....

- أنا جميلة
- أهلاً بك
- أود أن أقابل الأستاذ إسماعيل

يأخذ الصمت حيزاً ما بينهما عبر الأثير، تقطعـه تمـام قائلة :

- أعرف.. هل لك مطلب أو غاية معينة أقدر أن أقدمها لك؟

بدأت خيوط ما بين يدي جميلة تفلت منها وهى التى كانت قابضة عليها منذ دقائق، فجف حلقها، تتحطب عليـه أحبـال صوتها، تتدفق أفكارها حارقة مشتعلة، تسأل:

هل فقدت شيئاً؟.... وعمّ أبحث؟!!.... وهـل غـايتي بعيدة، أم أنها ستوافق على تحديد موعد وألتقـي مـع ذلـك الوجه الذي إنتقيت من رسوماته.. "عائدون" من "جبل النار"، "ووجه من تل الزعتر" يحمل "قلادة"، و"الكبرياء الحـزين"، إستردت اللحظة بثقة العارف قائلة :

- سيدتي أنا أعرف السيد اسماعيل منذ سنوات طويلـة، أعرفه وهو لا يعرفني، رأيته دون أن يراني، مضيت معـه عبر خطوطه وتعرجاتها من عين امرأة لم تسـدل أهـدابها لازالت تشير إلى الحقيقة.. عين عرفها، رسمها فى وجـوه كل نساء كنعان، من تل الزعتر إلى الكبرياء الحزين، لمعت لها شهب ترقب الأرض، تنتقي مكاناً آمناً للسقوط، غـايتي أن تكتمل صورة أحملها له فى ذاكرتي وخيالي، وما تبقـى من ألوان صورة.

قطعت كلماتها المشتعلة قائلة لها :

- اك أن تتفضلي، وسأهديك كتابنا الأخير فيـه سـيرة ومسيرة لحياتنا، رسمها هو ورسمتها أنا، العاشرة من صباح الغد.

لم تتردد جميلة في الموافقة، تسحب ورقة من مفكرتهـا، تدون عنواناً.. تلاع العلي.. عمان، وغد وموعد مع عنـوان تريد أن تفك رموزه لتصل إليه دون دقيقة تأخير، وكلمـات تمام تصف لها:

- أمام مدخل البيت قوس

تبحث جميلة عن مداخل البيوت، فكان القوس الذى دلها، يدها تضغط على جرس الباب وسط لوحات معانقة لحـوائط المدخل، يشرع لها الباب تقابلها الخادمة، تدعوها للدخول إلى البهو، لتجد نفسها واقفة أمام لوحة " الموت عطشاً " علـى طريق التيه وحيدة أمام لوحة تفوق حجـم جسـدها، تكـاد تبتلعها، وعين جميلة تغوص فى أعماقها، غارقة عبـر كـل الأزمنة، وكل حدود المدى.

تتذكر د. عز الدين المناصرة وشموط وحكاية لوحة في كلمات تطن فى أذنها.. من الموت عطشاً وعودة إسـماعيل

لاخوته بدون ماء من عين الحياة، أمام فوهات بنادق حملـت لهم الموت إلى أخيه توفيق الذابل عطشاً ، وماء يبحثون عنه فى بئرٍ منسي.... وعلى الأرض العطشى تسـقط هامـات المسنين، وعفونة تشتد فى ماء آسن يحمله إسـماعيل لأمـه وأخواته، وتلك المرأة التى ألقت بجسـدها عليـه، تمـتص أطراف قميصه المبتل.. تمتص ما علق به من ماء.. وأيـدٍ تقتلع نباتات من جذورها بحثاً عن رطوبة فيها.. هى عـين إسماعيل التى رأت.. لا عين جميلة وقلب إسماعيل هو الفاقد لأخيه توفيق لا قلب جميلة، وهل لأنهار العالم.. ينابيعهـا.. مصباتها أن تروي عطش إسماعيل؟.. أو تعيد إليـه توفيـق مرة أخرى وكف أبيه التى غطت بالقش وببقايـا أعشـاب يابسة جثثاً ملقاة، وإسماعيل هو الذى يعرف هارون الساقي وهو الذى سمع صوته يصرخ فى البرية من شدة عطشه :

- يا ناس.. لقد سقيتكم أربعين عاما، فليسـقني أحـدكم رشفة ماء.

من اللد.. إلى رام ا .. بيت لحم.. الخليل.. خان يونس.. ليكون إسماعيل أول من حشر فى مخيم، ولفه سـياج، وأول من عرف صدقات توزع من أمم متحدة، فلسطيني الأمـس..

لاجيء اليوم على تلال خان يونس الرملية البيضاء الذهبية.. تلال تغير أشكالها على ضوء شمس النهار وضوء قمر الليل تقترب جميلة من اللوحة وتقصر المسافة ما بينهمـا ترفـع ساعدها، تفتح لها أناملها لتحوط بها كل من فـي اللوحـة " الموت عطشاً وما إن سمعت صوت سيدة البيت حتى ارتدت بخطواتها إلى الوارء، محتبسة الأنفاس، تتلوى أمعاؤها مـن آلام دفينة وقعت تحت وطئها.. لم تستطع أن تدقق فى ملامح تمام الواقفة أمامها فلازالت اللوحة تسكن عينيها وكأن العالم كله ساكن فيها.. تصافحها تمام وموجة خجل تجتاح جميلـة، وفضول يعود ليحتل قلبها فى البحـث عـن مجهـول هـو الأقوى.. بدأ الحديث بارداً ثم ما لبث أن سـرى فيـه دفء بحكايات من جميلة وتمام، وتنهض لتأتي لها بأوراق تريهـا لها، تحمل صحناً فضياً تقدم لها قطع الحلوى، ولكن تتعثر قدم تمام وتسقط أمام جميلة، تندفع نحوها لترفعهـا.. ترفـع جسداً واهناً يمزقه الألم، تسندها على أريكتها، وتتمتم لهـا قائلة :

- لا أريد لاسماعيل أن يعرف بسقوطي.. لا أريـد أن أضيف إليه مزيداً من آلام..

تغيب قليلاً .. ورقاد إسماعيل في الغرفة المجاورة رقـاد الصمت والسكينة التي كانت تود أن تخترقها جميلة، وبقايـا اللوحة من جسد تمام الواهن ووجه إسـماعيل الغائـب فـي صمته.... ترفع جميلة راحة يد تمام تضعها فى راحتها تمسد عليها، على يد رسمت خطوطاً كما إسماعيل، كانت دومـاً معه في سيرة ومسيرة.. تتألم.. تغيب.. لتعود إليها.. كانـت تود أن توشوشها بكثير من الكلمات... أن أفيقي إلـى عـالم حولك عشقتيه.. يا فتاة كنعان الآتية من يافا.. يا فو لتسـمية كنعان بمعنى الجميلة.. وهل لإبنة الأكحل أن تنهض فلا زال أبوك هناك يحمل بندقية من صنع يديه لن تخذله أبداً .. يـا ابنة زهور البرتقال البيضاء كالثلج.. ويدك هذه التـي فـي حضن يدي رسمت لوحة التحدي.. كيـف تتحـدى زيتونـة صخورا أنبتتها؟!... حينها قال الصخر لها :

- أنت على خاصرتي أحماك وفي أحضاني

وزيتونة تتغنى وتسمعه :

- أنا الأقوى فإني حياة..أفيقي يا تمام مـن لوحتـك، لا تتركوا الحصان وحيداً ..أي حصان تقصدين؟.. وأي وحـدة وسط الحصار وبين القلاع والحواجز؟!.. وجع أصاب نفـس

جميلة لا تعرف مصدر ألمها ومن أيـن يأتيهـا ولا يبـرح روحها.. ألم يلجم الكلمات فيها، يقهر صمتها في بيت ضـم لوحات..رقصة الربيع.. الحب في الأرض.. أنين اعتمـاد.. صمت إسماعيل من قلب أتعبته الرحلة الطويلة.. ملامح لـم يكف يرسمها تتوق إلى عودة.. وكانـت اللاعـودة إلا مـن سرير يرقد فيه،وصمت يقطع أوصاله وأوصال جميلـة دون أن تراه.. وتحمل جميلة لوحتها وتمضي، ففيها كل خطـوط الثورة بملامح غطاها الرماد بعد أن عصف بها..هل تلتمس دفئاً من لوحة تحملها؟ أم هى برودة تجمدت فيهـا بعـد أن طالت ذلك الرجل الساكن فى صمته.

ومن جبال عمان تهبط إلى مطار القاهرة تحمل هويتهـا بعد أن دق بالختم عليها، " دخول " تلفح وجهها نسمات هواء زاحفة إليها من صحراء سيناء، تجلس في محطة الباصـات تنتظر موعد الحافلة لتنقلها إلى الإسكندرية، تستسلم لراحـة تنشدها من مقعد خشبى تجلس عليه، تغمض عينيها،تعود بها إلى جبال عمان وفيض من أسى وشجن تحملـه معهـا،تفتح عينيها متثاقلة، تقع نظرتها على حقيبتها الصغيرة، يطل مـن فتحتها الكتاب الهدية من تمام "جداريات السـيرة والمسـيرة

الفلسطينية " تشده إليها، تريحه على ساقيها، تفتح صـفحاته وسط رياح معاكسة، مضى بها زمن، لتقف عنـد الصـفحة الرابعة والخمسين ولوحة "من أجل البقـاء"، وأول معـرض يقيمه إسماعيل كان فى القاهرة، يزوره الرئيس جمال عبـد الناصر لم يتحدث كثيراً بل ظل أسيراً لصـمته متـأملاً للوحاته، يتحرك من لوحة لأخرى،عند مغادرته القاعة، مـد يده مصافحاً .. يشد على يد اسـماعيل، لـم ينـبس بكلمـة واحدة.. صمت إسماعيل فى حجرته مريضاً.. وصمت جمال حين تحرك بين لوحاته، ويد جميلة التـي رفعتهـا وكـادت تلامس وجوها رسمتها يد إسماعيل من الموت عطشاً، أغلقت الكتاب بين يديها.. ضمته إلى صدرها تستنشق هواءاً مـلء رئتيها وطريقاً يتسع لها ولآخرين....

*****

وتصلها منه بطاقة، من وجه لم تره، وجها ذلك الرجـل الذى اجتاز كل الازمنة وحمل زهور بساتين تقطر دمـا... ووجه لامرأة واحدة فيه كل الوجوه...ذات الملامح...ملامح فلسطينية...تنظر جميلة لوجهها في المرآة، تتحسس قسـماته ذلك الوجه الذى لم تتوقف ريشة أن تحدد خطوطاً وملامـح

فيه، إنها هى...جميلة في عين القلادة من تل الزعتر..وعين في كبرياء حزين، من البريد الالكترونى تفتح رغـد وتقـرأ بطاقة اسماعيل لأمها... يجمعهما الحنين إلى عودة... وحب لأرض هناك في كنعان...تفتح بريده على نسـاء جمـيعهن يحملن زهوراً تقطر دما في فجر يطوف بالدم على سـماء الأرض فيمسح وجهها، يغسلها بدم من ذهبوا ومـن بقـوا.. ترقب عين رغد المأخوذة برسومات شموط، رسوماته أنستها وقع خطوات أمها فى حجرتها واقترابها منها...تشخص فـى دقائق ما رسمت يده.." أحلام الغد" وما من أحد يسـتطيع أن يمنع الحلم..وكيف أراح الصبي رأسه على ساعد أمه وطوقه بذراعيه.. لتنام أهدابه على الحلم.. ليرافق صـحوة غصـن زيتونة مستلقيا بجواره على راحتها المنكفئـة نحـو تـراب الأرض... ترحل معـه إلـى اقـتلاع.... الربيـع الـذي كان...وارادة الحياة هى الاقوى...يرجـع اسـماعيل رغـد بألوانه القرمزية، يعيدها إلى حافة الليل... تنظرها أمها مـن بعد، تنشد أملاً بعيداً.... وتسأل :

- هل استطاعت ريشة إسماعيل أن تعيد لها فتاتها إلـى كنعان القديمة.... إلى ما يدمي فؤاد جميلة؟!....

الفصل الثامن

كنعان.. كرمل.. داليا

حين دخلت جميلة من عتبة بيته.. كان في رحابه وطن.. هناك غرب النهر.. استشعرت دفئاً.. انتماء.. لملمت هويتها من على عتبة بيت المناصـرة.. الخليـل.. دورا.. وجبـال تلاحمت.. لتطل على أرض كنعان كلها، زوجتـه وطلتهـا البهية.. مفعمة بالحياء.. تحمل هوية من أرض هناك، أنبتتها من مخيمات لبنان، لم تر ذلك الوطن الذي يحكون عنه، بـل عشقته وانتمت له بكل جوارحها، ألقت بقلبها وعقلهـا فـي وطن " عز الدين".. وعنب الخليل المترعرع في صـدره.. فلسطينية هي" كاملة " ومشوار تكمله معه، وجميلـة تكمـل مشوارها معها من نظرة حادة تطـل مـن عينيهـا مليئـة بالإصرار لأجل عودة.. عودة من شباك دارها المشرع على غرب النهر حيث كنعان.. وكنعان الذي أنجبته واشتد عـوده أمامها.. وكنعان لازالت هناك.. بعيدة.. قريبة.. ويأتي كرمل

بنبض حياة، وتتعربش داليا على ما تبقـى مـن حكايـات.. أخت.. وأم لأبطال الغد.. لحظة أخذت جميلة مجلسـها فـي بهو دارهم التفت إليها " عز الدين " مرحباً :

- أتعرفين من شهد على عقد زواجي؟....

لم ينتظر أن تعرف وقبل أن تقول له من يكـون أسـرع يجيبها قائلاً :

- ماجد....

يلتفت إلى كاملة زوجته :

- ائتها بالعقد لتراه.

تسرع إلى حجرتها لتسحب ورقة مطويـة توقظهـا مـن سباتها، تحملها في راحتيها، تفتح ورقة مطوية سكنت علـى كل ما فيها، فيطالعها اسم أخيها شاهداً على عقد زواج " عز الدين " وكاملة.. لم ينس عز الدين ولم تـنس كاملـة التـي أطلقت دموعها المحتبسة طي ورقة مطوية بعمر زواجهـا.. كانت دموعها حارقـة للقلـب والعـين.... دار الحـديث.. واقتربت المسافات على ألفة وود، لقاء لن تنساه جميلة.. عز الدين مسترسل في حديثه وكأن لقاءه بجميلة لأول مرة هـو لقاء للزمن الجميل :

- أتعرفين، أول صوت علا على صوت الـرئيس كـان صوت ماجد، يومها طلبه وحضر إليه، كنت أمارس بعـض مهماتي بجوار مكتب الرئيس، أسمع صوته حـاداً وكلمـات قالها محددة، وصوت يده حين هوت مع كلماته.. " لن أسمح لك " الصوت الوحيد الذي وقف أمام الـرئيس وقـال " لا " صوته هو.

لفنا الصمت وحوطنا، ودموع كاملة تحاول أن تزيحهـا من على وجهها، تداري قهراً.. ومراً تجرعتـه وزوجهـا.. دخل كنعان ليكسر من وجع اللحظة وحدة الصمت الصـارخ داخلنا.. آخذاً مكانه بيننا.. وبداية لأحاديث علـى طريـق لا ينتهي، حديث عن الوطن.. الهوية المتجذرة داخلنـا وعـن آخرين وحكايات لهم قد تكون منسية.

- حين جاءتني تلميذة من تلامذتي لتقدم بحثاً عن تـذوق النص الأدبي في أعمال " غسان كنفاني "، سألتها:

- من أي بلد أنت؟....

قالت :

- من غرب النهر

سألتها:

- من أين بالتحديد؟....

- لا أعرف، سأسأل والدي وآتيك بالجواب.

- ما نوع عمل والدك؟

- أبى يعمل طبيباً.

عادت في اليوم التالي تـطلب مقابلتي فأذنت لها، وحـين دخلت مكتبي قالت :

- دكتور، أنا من مدينة طولكرم.

تُعرفني مدينتها وتناولني موضوع البحث المكلفة به، لـم أمد يدي لأوراقها، ظلت واقفة، تغرقها الحيرة، وأنـا بـدأت حديثي معها :

- احتفظي بما كتبت فلن أقبل منك هذا البحث إلا حـين تكتبين لي بحثاً لا يقل عن عشرين صفحة عـن مـدينتك " طولكرم ".

تراجعت من أمامي، لتـمض دون كلمة تقولها وبعد أيام وجدتها تقف بباب مكتبي تعتريها نظرات الخجل والحـزن، وبيد مرتجفة تقدم ورقات كتبتها عن مدينتها " طولكرم "... " جبل الكرم " محطة القوافل.. عند أقدام المرتفعات الجبليـة..

سكنها الناس من قديم الزمان من عمر كنعان.." وزيتا " من زيت زيتونها أخذت اسمها.. " بورين " تقابل " عاره " لتعود قرية " أتورين " الكنعانية وآرام عائدة من قلب قرية " بلعا " وقضاعة وقبائل عربية نزلت إليها.. المقداد بن الأسود أحـد الصحابة..

اتفاقية "رودس" وهدنة.. استيلاء على معظم أراضيها ولم يتبق لأهلها سوى تلال وعرة .. وخط الشرق السريع.. إلى خط الحجاز، يضيق ليصـل طـولكرم بدمشـق.. جنـين.. بيسان.. وينتهي برمسيس.

أطلق أنفاسه ودخان لفافة ظل حائماً في الغرفة يحاول أن يجد منفذاً حيث ريح قد تحمل أنفاس عز الدين المناصرة إلى غرب النهر.. وضع لها بعضاً من دواوينه أمامها.. وكتـب إهداءه عليها.... وقرأ كلمات كتبتها، ينظـر إليهـا ويعـود يسألها :

لم تصل كتبك إلى غرب النهر؟!....

....

صمتت جميلة لا تدرى بم تجيبه، عاد يسألها :

- زكى العيلة.. غريب عسقلاني.. محمـود شـقير.. سليمان ناطور.. كل هؤلاء يجب أن يقرأوا مـا كتبـت يـا جميلة.

عادت إلى بيتها تحمل ما أهداه إليها عز الـدين، تتلهـف اللحظة لتختل ونفسها تفتح قصائده لتعرف من سكنه الوجـع وألم الفراق والحنين.. قد تجد المعاني الهاربة منهـا علـى أرصفة المدن الضائعة..كنعانيذا " بيروت " مذكرات البحـر الميت.. يا عنب الخليل.. من قمر جرش كان حزيناً، تقرأ، تقف عند الصفحة الخامسة من الإهداء إلى الشهيد الخليلـي الجبلي " باجس أبو عطوان " تشهق بأنفاسها، تفـتح عينيهـا على آخرها، تنادى من قلبها وعقلها..

- باجس يا وجعنا وأملنا..

تفرح.. تحزن.. وهى التي ذكرت هذا البطل في قصـتها المهداة إلى روحه في " رماد مشـتعل " تقلـب الصـفحات، تتمرر بمرارات عز الدين التي عرفت مذاقاتها.. تقف عنـد كلماته التي لا حدود لها.. من روحه كتبها فكانت فيها روح جميلة

* * *

الفصل التاسع

من الصفحة الأخيرة

هي صورته، نظارته الغائرة، وإصبعان من راحة يده يسند عليهما وجهه، نظارته التي جاب من ورائها بـلاداً وآفاقـاً، ويده الأخرى لم تظهرها الصورة، اليد التي أمسـكت قلمـه وحملت أوراقه، وشعره الغزير الذي لم يسكن إليـه قمـره الفضي لازال ليلاً يحوط هامته، وخاتم زواجه غائمـاً فـي إصبعه، بعدما أودع زوجته ثرى بيروت، رسمته يد رسام، أحب ملامحه، ووقع في آخر الصورة، وحوط اسـمه بخـط دائر، يقترب وجه جميلة من الصورة تحاول أن تقرأ اسـماً أحب ملامح لأخيها، ولكنها تسدل جفنيها حزينة لفشلها فـي فك رموز توقيعه، تعود شاردة بعينيها، ترفعها ثانية لملامحه المطلة عليها، ساعة يده بجلدها الأسود، اف قرصها ليستدير مع التفافة يده، كانت تود لو تقرأ على عقاربها زمانه الـذي مضى، وهي التي لا تعرف في أي زمن تكون.

تجلس على مقعد الخيزران المقابل للصورة، ترقب أنوار الشارع وأضواء السيارات، قد تستشعر حياة، وتعود تنظـر الصورة فتومض لها بالماضي والأمل العظيم، وتسأل :

- لم حين زارت أخاها لأول مرة في بيته بعد زواجـه أخرج لها هذه الصورة من محتويات كثيـرة يحـتفظ بهـا، وكيف مدت يدها إليه تتلقفها منه، تود أن تعود بهـا طـائرة حيث بيتها.... وأي بيت يكون بيتهـا؟!!.... هـل هـو ذاك القابع في قلب جبل عمان.... أم بيت لهـا يكشـف شـاطئ الإسكندرية الذي تعيش على تقلب أمواجه.

حملت الصورة تجتاحها الحيرة، هنـا.... أم هنـاك.... وضعت الصورة في حقيبة سفرها.... الصـورة لا تفـارق ذاكرتها، عادت وأخرجتها من حقيبتها تضعها على مكتبهـا ووضعت صورة لها تقابل صورته، ليلة الرحيـل، نافـذتها مشرعة على الوادي الحامل لبيتها، جلست وحيدة أمام أضواء الشارع والسيارات، رفعت بصرها للوحـة قديمـة تقابلهـا رسمت بالقلم الأسود لصقرٍ فاردٍ جناحيه يحمل على أحدهما مسجد الصخرة والجناح الآخـر الأرض دائـرة، وكلمـات مكتوبة في أعلى الصورة :

" عيوننا إليك ترحل كل يوم " مضت حيث حجرتها أمـام صورة أخيها وصورة لها تقابلها من طفولتها رفعتهـا إليهـا ماضية حيث البهو تدور بالصورة وعيناها تلف الجدران.... هنا.... هناك... قادتها قدماها لمكان تعلقها فيه تقابل اللوحة القديمة وتحت الجدار سلة من الخوص تحمل سنابل القمـح اهتزت لها، وكادت جميلة تشرئب لتصل إلى لوحة وصورة لأخيها....

استراحت في مقعدها قررت أن الصورة ستبقى في عمان ولن تسقطها الذاكرة حين تمضـي بـدونها إلـى القـاهرة، وتطويها المسافات، قد تسعفها كلماتها وترسم ملامحه بكلمات محفورة في ذاكرتها على طول المدى.

******

يوم دخولها مبنى جريدة " الرأي " فـي عمـان، كـان الجميع يعملون خلف مكـاتبهم، تتصـادم الأجسـاد عبـر الطرقات، فالأخبار تأتي إلـيهم دون محطـات وقـوف أو إنتظار، وحين نطقت لهم باسمها، مدوا لها أيديهم مـرحبين بوجودها بينهم، كان اسمه هو يسبقها، فالقادمة إليهم هي أخت فارس رحل منذ سنوات طويلة، اقترب أحدهم يهمس لها :-

- هو أستاذي حين بدأت مشـوار حيـاتي.... علمنـي الكثير.... ولولاه لما رأيتني أعمل في مبنى الجريـدة، بعـد حرب أيلول الأسود كان يكتب القصة القصيرة في الصـفحة الأخيرة، له قصة لازال عنوانها طي ذاكرتي " رأس ملفوف جداً "

تجيبه بلهفة :-

- وأين أجد كتاباته هذه؟

- في جامعة اليرموك، حين تصلين تسألين من يقابلـك عن الغرفة السوداء، له أكثر من عشرين قصـة قصـيرة لا يعرف عنها أحد شيئاً، فـي جريـدة "فـتح" مـن الصـفحة الأخيرة....

- هل لي أن أتعرف؟

- من مخيم البقعة، نزحت إليه من مخيم عقبة جبـر.... ومولدي كان في مدينة "تتريس".... عرفت كيف تبنى بيوت الطين دون باب وشباك، وكيف أصلح بابور الكاز.... ولـي أم من ساعديها أكلنا وشربنا من عملها في الحصـر تحـت وطأة شمس الغور ولهيبها، وأنا الذي تاه على طرقات غور "أريحا" أبحث عن أمي، زحفت على تراب الأرض باكياً في

ليل المخيم، فعلا عواء الكلاب لبكـائي، لتبتلعنـي وإيـاهم العتمة، أنا من كتب القصيدة في مهدها، وأخـوك أول مـن أراني إسمي مذيلاً في آخرها، عن " شهداء الكرامة " وإسماً لي مكتوباً على صفحات جريدة تنطق باسم فصائل المقاومة " من يوميات مقاتل ".. صيف ١٩٧٠.... أنا الـذي أنكرنـي العالم، وكدت أنكر نفسي، هو الذي أهداني هوية، فنمت فـي داخلي برعمة انتماء للكلمة من خلال جريدة هو معنا فيهـا، جمع كل الطاقات ولا أعرف كيف كان يجمعهـا، مقاومـة، فتح، العاصفة، تجربة توشك أن تسـلمنا لعامهـا الأربعـين حملتنا وهو إلى بلاد ما كنا لنفكر فيها، وجمعتنا ببشر ما كنا لنعرفهم، وضعتنا في مأزق ما كنا لنحلم بالخلاص منه، لـم يكن لي فراش يسعني سوى زاوية في أسفل بناية خصصـت للطباعة، وليال باردة أمضيتها وحيداً، إلا من وقـع أقدامـه أسمعها تأخذ الدرجات السفلية، يعرف مكاناً أنا قابع فيه، يلقى إلي بتحية القائد، ما إن أبدأ في محاولة النهوض حتى تسبقني راحة يده مربتاً على كتفي قائلاً:-

- حسبت أنك غاضب من قسوتي عليك في بداية هـذا اليوم، لنا لقاء في الغد، تكون أنهيت المادة التي فـي يـدك لتدخل المطبعة.

وسكت عن الكلام شارد النظرة، وبنبرة خفيضة :

- تعلمت منه الكثير، ومعه كانـت بـداياتي، كثيـرون أحبهم، وكثيرون أحبوه....

- هل تستطيع أن تذكر لي بعضا من أسماء؟

غامت نظرته من وراء حجاب شفاف، حيـث مسـافات مطوية بعيدة.... رجال ورجال.... ومواقف مضيئة تقـارب الاشتعال، تمتم لها بأسماء تذكرتها " أحمد دحبور " الكلمـة القصيدة.. " أبو الصادق " خط بيده أغاني الثورة.... رددهـا وراءه الصغار.... الشيوخ.... والرجال.... بصوت واحـد ترنيمة واحدة تمسح وجه الأرض في كنعان.... تذكر كلمات " جوردان " وسط الرنين المر لأجراس الدفن....

- إذا انتهى هذا الهجوم بالفشل فإن هجوما آخر سيتكلل بالنجاح.

في قاعة السينما يغلب النعاس جميلة، يلكزها برفق هامساً لها :-

- هل سمعت؟....

تفيق تنتبه لوشوشته الحانية :

- نعم.

وتعود مشاهد فيلم " لمن تقرع الأجراس " تحملـه حيـث هناك.... أمريكي يستشهد على أرض أسبانيا.... عدالـة.... وقهر.... يطير الفارس دون الجناحين.... بعيـداً عـن دار سينما تحت الأرض وبيروت شرقية وغربية.... وأرض لن تموت أبداً.... وحراً كان ذات مرة، لـن يعـود للعبوديـة، وأموات لنا يعيشون كجـزء مـن تلـك الأرض.... وفـي اللحظات العاصفة كان يلقى إليهم ببذور الأمل.

- اصمدوا... المستقبل لنا.

يلم كل ورقة كتبت في أدب النكبة، ويوم وقع فـي يـده اللامنتمي " لكولن ولسن " لم يكن يعرف أنه سيكون منتميـاً عظيماً.... وأحراش عجلون وجرش تسأل الريح والغـيم.... تسأل دفء الأنفاس التي تمر بها عن فارس كـان يعتليهـا حاملاً سلاحه.... كاتب الكلمات التي هو جزء منهـا، يـوم أمسك بمجموعته القصصية " الخبز المر " أطلت من عينيه

البهجة.... ولكن تظل كلمات الآخرين هي مدرسـته التـي أحبها....

" إميل حبيبي " كلماته لا تفارق حقيبته التي ينتقل بها....، " سليمان ناطور " وحرصه على جمع كتاباته، يرتفع بصوته يؤازر قضية الإنسان ضد كواتم الصوت والقتـل السياسـي وعمليات التعذيب وحين يسألها د/ السيد نجم عنه، ومشوار نجم في جمع أدب المقاومة، تلم أفكارها لتعرف كيف تقـدم كل ما يخص هذا الفارس الذي يحيا فـي قلبهـا صـورة... قصاصات كتبت عنه.... أوسمة حصـل عليهـا، " وسـام فوتشيك " من الاتحاد العالمي للصحفيين، باسم مائة وثمـانين ألفا من حملة الأقلام الذين يدافعون عن الحرية.... " محمود أمين العالم " نيابة عن الحركة الوطنية المصرية في تـأبين الأديب الإعلامي، المثقف الثوري.... عرف الخبـز المـر ومذاقه.... وفي مكان خفي قصي تخبئ ما يخصه، أخـذت تمد يدها وتفتح تلك الملفات تبحث عـن الدوحـة.... وفـى الدوحة له قصة وحيدة غريبة.... لازالـت هنـا.... وهـو الراحل هناك.... تقلب صحفات الدوحـة لتظهـر قصـة " الرحيل " وكلمات كتبها.. تلك الكلمات التي ظلت وحيدة....

بعيدة .... هل تضمها جميلة إليها في كتاباتها وتبحر في ألمه وشجنه العصي العنيد... " عمري تسعة وثلاثون عاماً، وأنـا الآن في مدينة لها بحر، من الشمس تولد... كان هناك لـي بيت وأرض.... وهنا لي بيت بلا أرض.... هناك كان لـي ماض، وكنت أملك ناصية يومي.... وكنـت أزرع أحلامـاً تشرق بهية في غدي، وأنا هنا بلا ماضٍ.... يـومي بطاقـة سوداء، هنا أنا بلا جذور.... بلا أصل.... "

وأغصان شجرة الجوافة لازالت حطباً يتقصف كل لحظة في قلبها... وشمس مدينتها مازالت نائمة في البحر ورحيـل فارس، لتبقي منه صورة يلفها اطار معلق على جدار هناك، وتظل لوحات إسماعيل وتمام تحكي لهـا عـن جـواد دون فارس " لا تتركوا الحصان وحيداً " أحلام الغـد.... الربيـع الذي كان.... صور.... لوحات.... معلقة هنا.... وهناك.

* * *

الفصل العاشر

قطعة صلصال

تفصلها عنهما قطعة رخامية، منمشة بألوان في دوائـر متعرجة، تنبسط أمامها في ألوان أسود، أبـيض، زهـري، تحاول أن تقبض بعينيها على أحد ألوانها ولكنها تتـوه فـي انبساطها وثباتها على قوائمها، كلمات الطفلين تقطع ملامحـاً تحاول أن ترسمها، لترحل عيناها على أنامل صغيرة، تقطع قطعة الصلصال فتلين في راحتيهمـا.... هسـيس الكلمـات المبهمة وحروف لم يقدر لها النماء بعد، طفولة مفعمة متفتحة كرائحة ليلة القدر حين تطوف سابحة فـي فضـاء الليـالي الندية، تحمل أمنيات.... كلمات الحنين.... إلـى الصـحبة، وبيوت خلت من باب وشباك.... أراحـت بصـرها علـى راحتيهما الصغيرتين، ترقب حركة أناملهما وهي تلف قطعة الصلصال إلى كرة تدور تحت وطء راحتيهما، تلف ملسـاء وتدور في حركة تذيب تعرجاتها تحـت ضـغط راحتيهمـا

عليها، وبصرها لم يكف عن الـدوران لقطعـة صلصـال تكورت بين راحتي الصغيرين، وما إن تخف حركتها حتـى تحفر ملامح وجهها الدائرة بين أنامل طفولية، لا تود التوقف معها ولا أن تلقى جانباً.... وجهها الذي رسـمته بعينيهـا، بحزنهما الساكن فيهما، تلتقط أنفاسها من ناي أحبه، ودبكة لم يعد يدق الأرض بقدميه على أهازيج المواويل، باتت أناملـه وحيدة. تقبض على الريح، لم تعد تتنـاوب الوثـوب علـى ثقوبها.

****

اختار الجلوس معها، يحكى لها عن رائحة حبات القهـوة المطحونة وفنجانا قهوتهما قريبان، يتدفق عبقهما متعانقـاً ، تستل فنجانها، ترتشف منه بقايا ما علق عليه من حكايـات، أما هو كان يبدو على ملامح وجهه أنه غير قادر على تجرع مرارة فنجانه، فكان يسكب الماء البارد فيه، قد يمتص بعضاً من مرارته، أما جميلة فالمرارة عالقة في فمها تتجرعها، من مقهى القهوجي، كان يحكي لها مسافراً وراء كلماته،. يلامس راحتها حين يقبض على الكلمات معها، كانت تتحفز لتلـك الحركة التي تصلها دون تفكير منه، تحاول الوصول معه بعد

تحليق وسفر، وتعود، يحين الوقت ليمضي كل منهمـا فـي طريق المواعيد والارتباطات على طرقـات المدينـة، لكـل منهما مطلع جبل، قد يكون طريقه وعراً أو له منزل فتلـتقط عليه الأنفاس،همس لها للقاء آخر، ترفع رأسها تنظـر إلـى قامته المديدة بجوارها، وتسأل نفسـها، هـل مـن الممكـن الوصول إلى أغوار هذا الرجل؟!!.. هو يطلب لقاءاً آخـر، الحديث لم ينته بعد ولازالت هناك بقية....

- جميلة معذرة، تبقى عـدة نقـاط أحـب أن أحـدثك عنها،هل لي بلقاء آخر؟

ترد وخيوط الشمس تعاكس نظرتها وضيق الوقت لديها :

- الوقت. .. من الممكن في الغد ظهراً.

- فليكن.

يجلس في انتظارها بعين قلقة تتنقل من رصيف إلى آخر، حين حضرت عاودته ابتسامته، يرحب بها، تشد مقعداً قبالته، ويبدأ يكمل لها حديث الأمس، وما يؤلمه من أمنيات ضائعة، لازال حريصاً عليها، يجلس أمامها كمن أعد أجندته ورتب أوراقها ليعرضها عليها... ما إن يدخل في نقطة وينتهي منها

حتى يبدأ بأخرى... لم يخطر ببال جميلـة أن تحدثـه عـن نفسها.. ولم يخطر بباله أن يسألها.. كل ما يدور في ذهنهـا أن تقف على حدود ما يعاني منه.. تحاول أن تمسكه طـرف خيط يستطيع من خلاله أن يتغلب على أزمته الضاربة فـي كيانه الممزق أمامها.... أجندته زاخرة لرجل يتعامـل مـع المعادلة والرقم.. متى يبدأ ومتى ينتهي.. وخيارات مطروحة أمامه.. استشاري هناك.. أو مقيم هنا، ولكن بفعالية أكبر بين شباب متميز يتبنى أحلامه.. خيار واحد أمام جميلة، أن يبقى هناك بين أبناء وطنه ولا يقطع الطريـق علـيهم، ليتـركهم ويمضي.. يصغى لكلماتها، ودورة أفكاره التي لم تسـتطع أن تصل إلى آخرها، لتظل تلك الورقة الأخيرة المفتوحة أمامـه تحمل كل الخيارات، يجوب وديان جبال "رام ا " فلا تلـتقط يداه سوى أزهار فيها أريج ما تبقى له من أمنيات وورود لا يتردد في حملها إلى زوجته، ولا أحد.... يلقى بوروده فـي حجرة نومها، في مطبخ اعتاد الوقوف فيه، وطهو ما يقـدر أن يقدمه وجبة تكفي حاجة صغاره.

يفاجئها بسؤاله :

- جميلة لمن أقطف ورودي هذه؟!!.... هـل لـكِ أن تجيبيني؟.... زوجتي لا تلقي بالاً لها وأنا الذي....

دفع فنجان قهوته بعيداً عنه، يمسك ببعض وريقات مبعثرة يبدأ في لفها وفردها وطيها مرة أخرى، ويعود فيرفع عينيـه إلى جميلة ينتظر إجابة يسمعها.

- إذا كنت تحب الورود فلك أن تقطفها وتحملهـا حيـث تريد.... عش لحظات من عمرك أنت وأحبها، لِـم يصـبك الحزن إذا كانت ورودك هذه لا يلتفت إليها أحد؟!... ولا تجد أيدي تضمها وتتشمم شذى تحمله من سماء وأرض، يكفـى أنت.

وسكتت عن الكلام ليعم صمت، ولا تعرف هل سيتجاوب مع فكرها الذي طرحته أمامه أم أنه لازال مصـراً علـى الوقوف بائعاً للورود ينتظر الأيدي الممـدودة لالتقـاط مـا يبيعه؟!..... ولا أحد....

****

يتركها ويمضي...وتمضي هـي إلـي نهـر الطريـق، وكلمات قالها على رصيف الشارع البعيد من هنـاك، تعـود تعيدها في ذاكرتها :

- كم أحب النظر فيما وراء وجهك، وأكشف عن غموض نظرتك يا جميلة.

كلمات لم تعر لها صدى، بل واصـلت حـديثها معـه، يسألها...تجيبه، يطلب نصحها، تشحذ ذهنها لتريحه، تحـاول أن تبثه قوة قد يواصل بها، تسأله :

- هل ستقدر أن تتعامل مع واقعك بعد حديثنا هذا؟

- سأحاول.. هل تعلمين أننا لجأنـا للـدجالين وقـارئي الكف.. الرجل الجالس أمامك بكى يوماً.. أتتصورين هذا؟

تجاهد في الإبقاء على حالتها طبيعية أمامه، تشد أحبـال صوتها، لتصل نبراته هادئة إليه :

- ما يهم هو أنت، الوطن يحتاجـك.. يحتـاج لرجالـه الأقوياء، لا تدع تلك المحطة تنال منك وتتحطم عليها.

ملامح وجهه أمامها لا تساعدها ولا تدلها أنها قد تصـل معه لحل يخرجه من دائرة الأزمة، تعود تشـحذ عزيمتهـا أمامه، تواصل عسى أن ترتاح نفسها :

- أنا لا أحدثك عبارات إنشائية، بـل مـن تجربتـي.. عاندت أيامي لكي لا أكون قوساً مثنياً.. كم أحـب أن أنقـل تجربتي إليك.. أتفهمني؟...

يرفع عينه إليها ويعود يحرك ورقته المثنية بـين أناملـه يمينا ويساراً..

- أعدك يا جميلة.. سأحاول.

بدأت تتلفت حولها إلى الطريق الذي أمامها تنظر سـاعة يدها، حانت الساعة للقيام، لم يتبق منه حين يرحـل سـوى عنوان.... تسأله عنوانه.... يوشوشها :

- قد لا تجدينني مرة أخرى.

- إلى أين؟....

- إلى حيث لا أدري... أتوه في زحام أيامي القادمة.

يسألها عن أرقام يصل إليها من خلالها، تحاوره بنظـرة ماكرة:

- وكما قلت حين أنوي البحث عنك لن أجدك.

ألقت له بكلماتها ومضت حيث نهر الطريق تفكر في ذلك الرجل الذي تبخر من أمامها

****

حين اقترب منها في أريكة تجاورها في مجلسهما همـس لها دون أن يشعر الجالسين بحرارة كلماته :

- ما نوع عطرك الذي تضعين؟

تخيلت قوارير عطورها وأسماء لا تذكرها..

ثارت أفكارها في سؤال يتبعه آخـر.... سـؤاله يشـبه تساؤلات أخرى.. العطر.. واسم له.

ارتفعت إيقاعات الطبلة وترنيمة المواويل القادمـة مـن خلف النهر، تأتي ثائرة بعد محاولات لكسرها.... وأدها.... دفنها.

يتقدم لينضم لحلقة الرجال حيث تتشابك السـواعد أمـام النسوة المقابلات للرجال مـن كنعـان القديمـة.... كنعـان الحاضرة التي لم تمت في حكايات مطرزة على الصـدور، مد لها يده ضمها في راحة يده، أرادها معه، أرادهـا ليبـث دفء قلبه إليها من راحة يده إلى راحتها.... لتكتمل حلقـة من رجال ونساء من قلب كنعان.

****

زعتر وزيت.... خبز وملح مـن يـدها فـي مائـدتها الفلسطينية.... تجاوره في جلسة تشتد المسافات اقتراباً بين راحتيهما.. تمضي عنه.... ويبقى هو شارد النظرات علـى رقم كتبته له، قد يصل به إليها.... حـين مضـت عنـه أن

لرحيلها مقعدها، وقع قدميها، دقات الطبـول لفراقهـا.... آخذة طريقها على درجات البيت، تقف، تستقر عيناها علـى حقائبه المتكومة تحت الجدار.... حقائب ستعبر النهر معـه إلي بلاد تحب فيها طفولة راحلة عنها.... وتحب أنوثة آفلة، من تلك الأرض الحاملة لقلوب رجال يحملون الحـب بـين طيات جوانحهم وجميلة البعيدة، تنظر النهر، وجسر سيحمل أقدام ذلك الرجل وهل سيعود ينفخ في نايه وتتقـافز أناملـه على ثقوبها.... فتعلو الهتافات والتصفيق، ويرجع له بريـق عينيه، هل سيذكر أنها أعادته بقوة إلي هناك يوم تدفق دمعة فرح.... في ليلة يعلو فيها التصفيق و كلمات ابنه لرفيقه :

- لقد عاد أبي.... عاد إلي نايه ودبكته....

وتعود أمام كرة الصلصال.... تخاف أن تضغط أنامـل الصبي عليها فتخفي ملامح أحبتها من هناك..

****

الفصل الحادي عشر

أزمنة.... طائرة

حين تقف رغد على عتبة حجرة أمهـا، وجميلـة تشـق طريقها وسط كلمات محمومة، ترفع رأسها تنظر علامـات وضعتها بين صفحات كتبها، رغد ووقفتهـا ونظـرة غيـر راضية.. لاتحتمل الوقوف وسط الحجرة، لديها أسئلة كثيـرة واستفسارات تود أن تعرفها من أمها التى لم ترفع رأسها لها، بل لم تشعر بوجودها في لحظات نسيت فيها زمانها، ونظارة زاحفة إلى آخر حدود وجهها عند آخر نقطـة علـى أنفهـا زمن.... سباق.... تحد... مواصلة

تناديها :-

- أمى

تستغرق من الوقت حيناً ، وتعيد نداءها

- أمى هل لى بدقيقة؟....

ترفع لها رأسها وكأن جبلا ينزاح عن كيانها.... حبيسـة فكرة مثقلة بها، أسيرة.... جريحة.... تعيدها رغد لحاضرها في لحظة.... تنظر اليها وكأنها تراها لأول مرة

- ماذا هناك؟

تبدأ تسأل أمها عن أزيائها التى تلبسها، تـدور بجسـدها الممشوق أمامها

- ما رأيك؟ ألبس هذه السترة أم بدونها أكون أفضل؟....

تهز رأسها :

- لا بأس بها.

- وشعرى هل ألمه؟.... أم أتركه منسابأً على كتفى؟....

- في كل الأحوال جميل

- هذا القرط أم ذاك؟....

تشير لها:

- بل هذا

تتأفف لها قائلة :

- أمى تردين علي دون تركيز، وأكيد أصابك الملل من تساؤلاتى، لن أسألك مرة أخرى.

تلوى غاضبة، وتعود رأس جميلة تنحنى لورقها.... تلحق بمد الكلمات قبل أن تودعها على آخر محطاتهـا.... ترفـع عينيها تنظر الجدار وإطارا لصورة أمامها أتـت بهـا مـن هناك.... تضم أسرتها وهى وسطها، وتغيب خلفها آخذة كل الوجوه المحفورة في ذاكرتها معها.... لا تنس ذلـك اليـوم الذى اضاء فيه نور آلة التصوير في عيونهم.... وكيف لمهم والدها ينادى كل منهم باسمه، لـتجمعهم صـورة واحـدة، وتفرقهم حياة.. وجه بات في كندا الثلجية، ووجه في باريس مدينة النور، وأخرى على جبال عمان لازالت تحلم بجـوز ولوز وتين يأتون اليها من وراء النهر.... أما هى هنـا.... ووجه أمها.... وحجرتها هناك شاهدة عليهـا، تـذكر أمهـا مستلقية على سريرها مسندة ظهرها لوسادتها، ونظارة قراءة تشبه نظارة جميلة آخذة في الانزلاق، تقارب السقوط علـى صفحات كتابها المفتوح، تناديها، لا تجيب ولكنها تصـر أن تسمع أمها شكواها وسط انهماكها.... تشكو لها دلع أخواتهـا وسماجاتهن، لا ترفع عينيها لها.... تتـأفف.... تحتـد.... تضرب الأرض بقدميها.... تعود إلـيهن حيـث مجلسـهن ضاحكات.... ساخرات لم يتوقفن، اطار صورة ساكن علـى

الجدار تملؤه حياة.. لازالت عين جميلة واقعة فـي شـباكها دون فكاك.. جميلة وأمها.. رغد وجميلة.. وصفحات مـن كتاب هى الزمن الذى ترغب في اللجوء إليه، لذات معذبـة تجدها في شخوص تهيم في البرارى فتهيم معهم.. جميلـة لا تجيب.... كما أمها.... من خلف إطار أخذها إلـى الـزمن البعيد حيث هى هناك غارقة بين سطور الكلمات....

الفصل الثاني عشر

من نصل سكين

حين رأتها جميلة من شاشة التلفاز تشـد عقـداً يحـوط عنقها، إبنتها جثة بين يدي أبيها، الذى غسل نصل خنجـره بدمع حار، بل قطرات من ماء النار تزيح ما عـلا صـدره وقلبه، حاملا بين يديه نقاءه، طهارة قلبه التى تطهر بها حين نزفت دماء إبنته جميلة على ساعديه وخضـبت راحتيـه... وأمها وقلادة انفرطت حباتها، وأساور ذهبية تنزعها وتلقـى بها إلى تراب الأرض،فلم يعد للذهب بريقه، ولا للقلائد وهج، صرختها تدوى في بطن الجبل من النجوع البعيد... ليصرخ معها قلب جميلة، وتلف لها عدسة التصوير وتريهـا وجـه البوسطجى، فخرجت صرخاتها من عينيه، ملقيـا بالحقيبـة المشؤمة تاركاً جسده للريح، عادياً معها، يعلن تطهره على دماء جميلة....

ينتفض قلب جميلة وترحل عنها روحها بعيداً حيث هناك الآتى إليها...ولهفة قلبها على جهاز الهاتف الصامت أمامها، تدير قرصه، تطلب عثمان،ليأتي اليها برو ايـة البوسـطجى، وحبات كريستالية تلمع في ذاكرتها وقلبهـا..وهـل تتطهـر جميلة بكلمات كتبها يحيي حقي؟!...أم بكلمات أنشدها كروان من النجع البعيد طوى جسد هنادي....

****

وأقدام أحلام يوم ساقتها من الخضـرة.. بحيـرة.. كفـر الدوار...إلى عتبة بيت جميلة..حلم يقتلعها ويلقى بها علـى عتبتها..وانفجار بركان يندفع من رحمها يشيع بللاً يغـرق ملاءات سرير تطوى جسدها على طرف منه،منكسة الرأس وراحتاها تضمان أسفل بطنها...بداية هذيان بإسم " منصور" ذلك الاسم الذى شاركها الحلـم ومـزق الغلالـة البيضـاء النقية،ملامح منصور تشبه ملامح الرجل الذى شارك ابنـة" أبو حسين" أحلامها، استسلام أحـلام لآلام المخـاض فـي خبطات واندفاعات من كل اتجاه، لصوت يريد أن يصرخ في وجه الحياة.. بأنه حياة.. تشهق أحلام بإسم منصـور علـى عتبات مستشفى" الشاطبي" ولادة وسط تجمع نساء ينتظـرن ليكتبن أسماء لإناث وذكور من عنبر الولادة.. مستلقيات على ظهورهن...بعض منهن يشددن بقوائم الأسـرة، وأخريـات استسلمن لآهاتهن وصرخات متشنجة يشد بها حبل المحلـول المعلق على الحامل ومنه ليدها، وكلمات الممرضـة المـارة بهن :

- تنسين الآن الساعات الخوالى، وتأتين إلينا بالصـراخ والدماء النازفة.. يا لكن من نساء قادرات!....

تتسمر لهن وسط عنبـر الـولادة تنظـرهن غيظـاً.... وكدرا.... وجميلة الواقفة تمسح بعينيها وجوههن المعروفـة قائلة :

- كلهن منصور...ما الفرق بين منصور احتال ليضاجع أحلام... ومنصور آخر...وآخرين أين هم جميعهم؟!! تتلفت من حولها لا أحد!!...

تقترب من النافذة، تسقط نظرتها علـى رؤوس أمهـات يلامسهن الهمس والأسى على إناثهن المستلقيات في الأدوار العلوية، وهن متشبثات بصدورهن تضـم ملابـس القـادمين إليهن...إناث...وذكور وليلة قد تأتى بمنصور أو أكثر.. ومن وسط عنبر يضم أحلام وغيرها مالت نحوها موشوشة، تشد راحتها الهزيلة بين يديها، مثبت عليها لاصق المحاول تربت عليها قائلة :

- ستلدين الليلة، وستكون بنتا مضيئة الوجه مثلك

تمسح عرق وجهها، تتلوى أمامها من خبطات ظهرهـا.. ارتطامات روحها في جسدها شهقت لها تود أن تقول :-

- منصور..سيأتى..سيعقد العقد هنـا..هـو وعـدنى.. وسنخرج سويا أنا.. وهو.... و....

- لا تشغلى بالك.. لم يعد يهم.. المهم هو أنت يا أحلام

وتحت إلحاح صوت جهورى خلا من الرحمة،انسـحبت جميلة من عنبر الولادة وهواء يلفح وجهها ببساطه، وحافـة سور واطىء استنامت على مجراه أعشاب هائشة.. جلسـت رافعة وجهها للسماء.. فطالعها قمر لليلة فضية.. أنت أيهـا القمر، أعرفك وتعرفنى.. كلمـا رفعـت إليـك وجهـى.. تطالعنى.. وموعد مع حكايات مضت وأخرى آتية إلينا..من جميلة..أحلام.. هنادى..تعرفهن جميعهن.. أنت الذى أضأت بنورك وجوههن حين واراهن التراب.. فكان لهن فيك آخـر عناق.. وأروع عناق.. حب ينصهر في صلصـال.. حمـأ مسنون في زمان ومكان.. من زمن أبي جابر.. وزمان أبي حسين.. أبو جابر مهاجر يحرس مدرسـة وكالـة الغـوث للاجئات، كن بناته خمساً وأصبحن أربع، وأخوات لها حرمن النطق باسمها.. ظلت أفواههن تلوك أعشـاباً بريـة تسـتقر مرارتها في حلوقهن حين يسألن ذلك السؤال، ويجبن بـأنهن شقيقات أربع، وجميلة وتأكيد أمها الدائم لها، كن خمساً

- أين ذهبت الخامسة؟!....

- حكاية طويلة يا بنيتى....

لم يمض وقت طويل حتى انطفأ نور قنديلهم، ورحيل إلى ما بعد نهر الأردن، وانقطاع أخبارهم، والخامسة بقيت فـي تراب لا ينسى جسداً أذابه فيه، وحكاية لم تذب، لم تفن.. بل ظلت تذكر جميلة حكاية غلفها الصمت والرهبة.. وأخـوات لها أصبحن أربع خلف النهر.. ومن ليـالى غـزة المقمـرة خيالات أبي جابر بجسده العملاق وابنته يقودها وراءه فـوق أحراش البرية التى تزف القادمة إليها، وعودة له بـدونها.. ليصبحن هن الأربع خلف النهر، وحـين تسـوقهن جـدران المدينة إلـى طرقـات لا يقربنهـا، ورؤوس لا يرفعنهـا، وأصواتهن لاتصل من يسمعها.. كأنها الواقعة في قاع بئـر وتكسرت لآلاف القطع.. ومن هناك من خلـف النهـر قـد يلملمن ما تكسر منهن

****

والقمر لازالت تلمع له حبات من نجيمـات كريسـتالية، نسجت معه خيوط حكاية من ليلة كهذه، ألقت اليهـا بـأحلام وليال بعيدة.. باتت قريبة.. بل هى عجينة واحدة لمذاق واحد يتجرع مرارته جيل وأجيال لازالت تتابع قوافلها، حسنة إبنة

أبي حسين، خانتها فتحات تشبه الشبابيك في مخيم كان فيـه صباها، حين وشوش لها محمود بنار الجوى :

- حسنة لست أنا بذلك الشرقى الذى ينفق أيامه جالسـاً في المقهى حالماً وحبيبته على بعد خطوتين منه..

وخبر جاء لبيت جميلة، بأن حسنة قتلها أخوها، ومطلوب من أبيها الوقوف دفاعاً عنه في قضـية تخـص الشـرف وعرضاً مهتوكا، وتنطق أم جميلـة وسـط ذهـول سـابح يضمهم.. يعتصرهم وإياه.. تنطق فـي حـزن.. سـخرية.. تهكم.. من كلمات تقولها لصغيراتها وهى تضرب كفا بكف:

- أين يقبع الشرف فينا؟!!

وجوه بناتها حولها ونظراتهن البريئة، لا يعين ما تنطـق به أمهن، ولكنهن يعين معنى الدماء والموت وثـرى يفنـى الأجساد البضة الفتية، وتعود تدور دورتها مرة أخرى، تسأل عن الشرف؟!....

- الشرف له معنى أكبر،ولن يكون يوماً في مواضـع تثير حياءنا.. يا للعار..ويا لحزنى على الصبية..يـا ليتهـا جاءت إلي.. كنت.. كنت..

تدمع عين جميلة لبكاء أمها وتهتف من داخلها يـا ليتهـا جاءت إلينا.. من نشيج وإجهاش وشباك حزن تلقى أمـامهن، قد يلقين بما أصابهن فيها

****

صورة حسنة مسجاة في ساحة دارها في" مخيم النصيرات " رافعة يدها أمام وجهها لكى لا ترى وجه قاتلهـا.. وعـالم قهرها افترس منها أيامها وصباها.. وقاتلها يحيا بجسد يقطر بدمائها من جميع مساماته، لم تحن القلوب لصرخة حبيبهـا، إنه سيتزوجها وأخذها بيده لبيت المختار ليعقد عليها.. جاءها أبوها متوسلاً يطلب منها أن تخرج عروساً من بيته، تطيعه راضية ، وتعود إلى دار أبيها.. تخطو على عتبتهـا لتجـد السواد سكن مقل العيون، وأيد لا تنثني عـن رفـع رؤوس نكست، تؤجل موعد سقوطها وانكسارها..

خطوة حسنة على عتبة أبيها عقدت بها على كل لحظـات الحزن والفجيعة فيها، وهى لازالت جسدا ينـبض بالحيـاة.. ونبض آخر ينمو في روحها يؤنسها في ليـال لا تطاوعهـا جفونها، تخاف أن تنسدل على عتمة قد تطويها وتذوب فـي جوفها إلى الأبد، للعتمة خيوط، عتمة قبر سيضمها، وعتمـة

قلوب أنكرتها تكومت على حواف بلاطة مسنونة، هوت بها يد شقيقها، ويدها التى رفعتها لتغطى وجهها، تحجبه عن عالم لم تعد ترغب فيه.. وأم دارت في حومة الفراشات فاقدة لعقلهـا حين تقطعت أوصال رحمها صارخة فيها :-

- كيف ترضين أن تذبح قطعة من روحك؟!!....

****

يوم زار القاتل بيت جميلة بعد أن قضى عاماً عقوبة لقتل أخته حسنة دفاعاً عن الشرف، لم ترفع جميلة ناظريها عنه، بشعره المقلوب إلى الوارء، بأسنان مشطه الظـاهرة عليـه، رائحة العطر تفوح من قميصه الأبيض ناصع البياض، خـلا من أى بقعة دم حمراء قد تلوثه، قسمات وجه فتية نضـرة، وعين جميلة منغرسة في أصابع كفيه التى يحركها بطريقـة طبيعية، يضمها، يفردها، يمدها للصينية الحاملة له عصـير الليمون، غارقة فيه حبات سكر قد تكون لازالت مستقرة في قاعه، ترفض أن تذوب له.. تسمع رشفاته مـلء أذنيهـا.. ليمتزج بصوت كروان لم يهدأ قلبه، لم يطو جناحيه إلا حين يجد هنادى المتكومة في بطن الأرض.. يبلع ريقـه يـوزع التفاتاته إليها وللجميع لا شيىء تغير.. كل مـا تبقـي مـن

الصورة أن يقابل والدها ليقدم له جزيل شكر وعرفان بعدما نفض يديه من تراب أهاله عليها ومسح يديه من كـل آثـار لها.. أما هى التى طواها الثرى، جميلة لا تعرف اليه طريقاً حيث البرية، يا ليتها تعرف.. ويا ليت طائر الكروان يدلـه قلبه ويحط أينما هنادى.. لو عرفت جميلة سـتذهب حيـث هناك.. تحتضن صبارها.. توشوش قبرها.. أنها أحبتها وأن في العالم من يذكرها.. يذكرمن شقت حواف بلاطـة صـماء خرساء جسدها.. تركت جميلة مجلسه ومجلسهم ولاذت الـى ركن قصي وحيدة.. وكيف لقاتل أن يزور بيتهم ويجلس على أريكة ضمتهم.. ويشرب شرابهم؟!..تتحـدث اليـه أمهـا.. وأبوها!!.. صدمة أطاحت بجميلة، لم يستشعرها أحد، وظلت على زمن طفولتها المبرعمة على حوائط دارهم هناك.. كلما سمعت للكروان صوتاً ينادى.. تسأل

- لم طاوعته يده لقتـل أختـه حسـنة؟!.... الخـال.. وهنادى.. والأب وبناته اللواتى أصبحن أربعا

****

هل لجميلة أن تحكي عن نهاية، ونهاية هو اسم لصـبية، اسم رسم شرخاً طولياً.. عرضياً.. في نفس جميلة.. من

على سور واطىء تنمو عليه أعشاب هائشة ووجـه نهايـة يقذف به قمر آفل ليضيىء مدناً وقرى ونجوعا غارقة فـي العتمة.. وهذه النهاية التى تحدت قـيم مجتمـع، وأرادت أن تحطمها و تمزقها من خلال غشاء بكاراتها الذى فضته مـع كثيرين.. ومتعة تستمد منها وجودها، بأنها البطلة الوحيـدة والأخيرة، أما الأخريات فلا زلن متواريات خلف الغشـاء.. كيـف لنهايـة أن تحيـا؟!.. وكيـف لهنـادى أن تبتعلهـا البرية؟!.... وطائر عاهد عينيها حين رمقته بها مودعة أن لا يضم جناحيه ويركن للراحة إلا أمام عين هنادى.. تخلـع نهاية رداء وتلبس رداء.. تضم رجـلاً.. وتنكـر رجـلاً.. صوت أنفاسها تسمعها جميلـة ووقـع أقـدامها.. صـفقات أبوابها.. تعيش نهاية.. ماضية إلي كل نهايات جنسها.

الفصل الثالث عشر

محطـــات

تلتقي جميلة بإبنتها حين تحملها نسـمات زمانهـا إليهـا، تبتسم لها، تناديها ليصل دفء قلبها إليها بعد ليلة أمضتها مع زميلاتها في نزهه برية، كان فيها من لعب الورق وجهـاز الألعاب، ورغد تمضى عنها لحجرتها تلقى حقيبتها تبتسم لها بالتفاتة خفيفة دون السلامات والأحضان الدافئـة.. وتجلـس جميلة تصفن في زمانها الدائر من حولها وتسأل، هـل هـى قسوة أم أن شعور الاحتياج معدوم لدى رغد ولم تعد قريبـة من أمها؟!.... وجميلة لم تبرح مكانهـا تراقـب الأحـداث ووقعها الأليم على كيانها المفتت.. عادت إليها تشـد مقعـدا تجلس قبالتها إلي الطاولة تحدثها قائلة :

- سألني عنك والد صديقتي.

التفتت جميلة مندهشة :

- ماذا قال لك؟

- قال أنك كنت الأجمل بين زميلاتك في الكلية ومتميزة، وفي كل مرة يراني فيها يذكرني بهذه الحكاية.

ترجع جميلة بظهرها للوراء تجمع وريقات صفراء مـن الزمن الماضـى ترسـم علـى لوحـة ذكرياتهـا وجوهـا قابلتها،ولكن ملامح النسيان تقوى عليها وذاكرتهـا تضـعف وتستلم لتعود رغد تكمل باقى حكايتها :

- أم صديقتى رائعة وقفت لساعات في المطبخ تعد لنـا طعام العشاء، من شواء لقطع اللحم وقلي حبات البطاطا، وما إن انتهت من كل هذا حتى أخذت مكانها في غرفة الجلـوس تلعب على جهاز الألعاب حتى الرابعة صباحاً .

نظرت جميلة لكلماتها مندهشة:

- الرابعة صباحاً .... تلعب على جهاز الألعاب!!....

- نعم كم كان رائعا منها، وليست مثلك أنـت تقضـين معظم الوقت بين الكتب المتكومة هنا وهناك....

ضمت جميلة شفتيها ورفعت حاجبيهـا فـي صـمت.... جهاز الألعاب.... الرابعة صباحاً .... يا إلهي!!....

وعادت تنظر إلى ابنتها رغد التى بدأت تتـأفف وتنظـر لعقارب ساعتها

- أنا بدأت أشعر بالملل هنا، ليتنى ما عدت من نزهتى.
- ولم الملل؟!!....
- كل ما حولى يوحى بالملل

لازالت تحمل رواية تحكى عن تانيا وأمها....

حين تضم أمها قائلة :

- حبذا لو نمت يا أمي....

تمشط شعر أمها كطفلة صغيرة، إلي أن أحست بأن أمها قد ارتخت فجأة كأنها نفضت التوتر الذى كان يشدها، وخـد مبلل بالدموع تحت يد ابنتها.. جف مجراه.. تضم رواية إلي صدرها،تغمض عينيها تذكر أمها وأحلاما جمعـتهن معـا، والنظر إلي أمها حين تشرد عنها بعيداً يمتعهـا.... وحـين تلتقط أذناها صوت أنفاسها كانت تملؤها بالأمان، أنها لازالت موجودة وأن هناك حياة تنبض بجوارها.. تقطع عنهـا دفء ذكرياتها المتعانقة صوت رغد يخاطبها:

- أماه لم تقولي لي ماذا سأفعل هذه الليلة؟....

الفصل الرابع عشر

طريق النهايات

يوم مرت هدى ببيت جميلة رفعت رأسها تنظـر شـباك غرفتها فانعكس نوره الشاحب على عينيها.... أسدلت أهدابها على دمعة تمزج الشك باليقين على وجهها.... بـأن جميلـة نسيتها في وسط الزحام، نظرت أمامهـا والطريـق يـزداد اتساعا، تعاهد نفسها بأنها لازالـت تـذكرها ولا تسـتطيع نسيانها.... تدورعائدة وفي قلبها ذكرى لصديقة تحبها

****

وجميلة كما هدى، صورتها تلح عليها.... وعتاب نفسـها اليها لا يتوقف، المدة تطول والزمن لا يتوقف.. وبين هذا.. وذاك، تنقر بيدها باب هدى، وعتبة تحمل أقدام جميلة، يشعل نور البهو، ويفتح لها بابها ليشهد عناقا بعد طول غيـاب.... دموع هدى ووجهها المدفون في صدر جميلة، تتمـتم بـين حناياه قائلة :-

- كنت أظن أنك نسيتنى

وبعناق دمعاتهن تهمس لها :

- لن يأتي هذا اليوم الذى تقولين.

رفعت بيدها وجهها تنظر لعينيهـا الغـارقتين بالـدموع الحاملتين لكل الذكريات البعيدة، تحاول تهدئتها حيث تعـود بها لمسافات ضمتهما معا..

- هل تراك نسيت يا هدى حين مرضت مرضتى الكبيرة وقال الأطباء كلمتهم، أنها ساعات لا أكثر، كنت أنت التـى بكيت، وأجهشت من حجرة بعيدة عن حجرتى التـى أرقـد فيها، وحين تدخلين علي كان وجهك قرمزيـا مـن حمـرة الدموع، كنت أعرف أننى مقبلة على رحلة هـى الأخيـرة، كانت روحى تودها وتتعجل الانطلاق إلى عوالم مجهولة قـد أسكن إليها، ولكن من جسد لم يكل من المقاومـة، وقاومـت أنت معى، حملت إلي ما قد يشد أودي من بيتك إلـى بيتـى تصعدين درجات حاملة أواني مملوءة بما صـنعت يـداك، واستجاب الجسد وبدأ رحلة التعافي، رجوتك أن تكفي، فكنت الأشد إصراراً على عدم التوقف إلا وأنت ترييننـى أسـير على الطريق بمفردى.

شدتها متأبطة ذراعها، حيث حكايات لم تقل ولم تسمع بعد

- أم زوجى رحلت منذ شهرين

ارتسمت على صفحة وجه جميلة الدهشة :

- احك لى

- هل تتصورين يا جميلة أنها يوم ماتت وذهبت لمراسم دفنها، حملها الرجال مارين بها أمامى....

صمتت وكفت عن الكلام ذاهلة، لكزتهـا جميلـة بيـدها لتقترب منها أكثر

- أكملى

- لم تطاوعنى دمعتى.... استجديتها.... توسلت لها أن تسيل، لم أجد،أنا يا جميلة دموعي هي الأقرب مني دوما لأي مشهد.. أو فكرة حزينة .... كان الجميع من حولي يبكـون، غرقت مناديلهم، في حين جفت دموعي، فما كان مني إلا أن أخفيت وجهي براحة يدي المرتعشـة عـن الجالسـين مـن حولي.... لماذا؟!! هل تسـتطيعين أن تجـدي لـي إجابـة تريحينني بها؟!!....

لمت جميلة راحة يدها بين راحتيها قائلة :

- لو أنك وجدت حباً منها لكانت دموعك أول من طاوعك في وداعها لرحلتها الأخيرة، هى زرعت القسوة فيك

ردت بنبرة خفيضة :

- حنانها دافق لبناتها.... حنان جارف وكل السدود كانت تقيمها ما بينى وبينها، فتعيق نهر قلبى الذى لم يجد سوى الجفاف.

صمتت قليلاً تستجمع قواها لتكملة حكاية لها بداية.... وأيضا لها نهاية :

- لحظات موتها كانت غريبة، دخلت المستشفى وبعد دقيقة فارقت روحها جسدها وهى على مقعد متحرك، وحين حاولوا رفعها منه لم يستطيعوا، تشبثت به بكل قوتها....

تحكى لها عن مشهد لم تره ولن تنساه وعادت تكمل حديثها :-

- لحظتها دفعوا المقعد خارج المستشفى حيث الطريق لبيتها ليس ببعيد وألقوا غطاء على رأسها لكي لا يرى من يمر بعد منتصف الليل تلك المرأة التي كانت.... وحين دخلوا بها إلى بيتها حاولوا رفعها مرة اخرى لم يستطيعوا إلا بعد عناء وجهد حيث ألقوها على سجادة في البهو ليقدروا على

رفعها إلى سريرها.. وفي ساعة الدفن غابوا في المقبرة مدة طويلة، لحد إشتراه زوجى، ولكن المفأجاة أن رجل المـدفن تصرف به وباعه لآخر، وكان شجاراً وتجمهـر المعـزين وخفراء المقبرة، وفض الإشتباك حين وجدوا قبراً آخر قـد يحل المشكلة ولكن فيه جثة ترقد من ليلة الأمس....

****

هدى تقص لجميلة وجميلة سافرت على أجنحة الرحيـل الى طريق النهايات، المـوت حـين يترصـدنا.... وحـين يغافلنا.. وحين يغفو عنا إلى حين.... يوم رقد أبوهـا فـي مستشفى " الشفاء " " بغزة " لم يشك من شـيىء سـوى أن جسده تعب من حمل روحه.... أبوها بجلبابه الأبيض علـى سرير في مستشفى الشفاء وفى جيب جلبابه العلـوي وضـع نقوداً خرج بها من بيته، وكلمات أمها وأخواتها له :

- لا تحمل هذه النقود معك في المستشفى قـد تفاجئـك إغماءة ولا تدرى ما سيحدث؟.. قد تمتد يد وتأخذ منك مـا تحمله.

كان يلتفت عن كلامهم وينظر لفضاء غـزة مـن نافـذة غرفته، تتغضن ملامح وجهه في ضـيق لا ينفـك عنـه الا بالتوقف عن هذا الحديث، إلى أن قالها لهم :

- من أراد أن يحدثني عن هذا الموضوع فليرح نفسـه من عناء زيارتى.

ويفرد راحة يده على جيبه يتحسسها ويلصـقها متشـبثا بالجيب الصغير وما بداخله

ويئن الجسد، وتحزن الروح لفراقه، لم يستطع أن يقـول حديثا يوصي به، أتوا إليه بقلم أمسكه.... وهنت أنامله عليه، وهو الذى كان يقبض شلالاً من كلمات كان يخطها، حـاول أن يكتب إليهم ولكن انتهت كلماته بخط مضى به الى أسـفل صفحته البيضاء.. خلع جلبابه عنه لتـتم مراسـم دفنـه.... وهاتف يدق بجرس من هناك.... كان صـوت جميلـة.... حدثها أخوها :

- هو الآن بجوارى يا جميلة تتم مراسم دفنه.

هل سمع نبرة صوتها الأخيرة حين سألت...

- أبى؟....

ولم في هذه اللحظات دق هاتف جميلة من هنـاك حـين تعثرت قدماها أمام كل الحواجز والحدود المغلقـة.... هـل عانق صوتها روحه المسافرة؟.... وتمـت مراسـم الـدفن، ورخامة كتب عليها اسمه يحتضنها غصن زيتونة، وفنـاجين قهوة مرة.... يرتشفها المعزون وذبيحة تذبح للقـادمين مـن القرى والمدن المجاورة، يجلس أخوها في آخر ليلة سـتظل وحيدة دونه يحكى مـأخوذاً.. مشـدوداً لأصـل الحكايـة ونهايتها :

- ما كان يحمله أبي في جيبه لم يتبق منه شـيىء إلـى آخر فنجان قهوة في يوم مأتمه.

أبو حسن.... أبو على.... جمعتهم مع أبيها صلاة واحدة في مسجد فلسطين الأقرب إليهم على مدى لـيلهم الطويـل يمضون إليه سويا، يعودون سويا لم يخلفوا موعدا على هـذا الدرب.... لم رحلوا مع أبي جميلة في شهر واحد ولم يبقـوا على الأرض؟.. وحين زارت جميلة قبر أبيها كانت أسماؤهم متجاورة، كيف أتوا ليكونوا معه، وأى صـدفة تلـك التـى جمعتهم هناك سوياً؟!....

الفصل الخامس عشر

لأجل من؟!!...

حيث التقت به على الشاطئ الرملى وأنوار تتحاكى مـن فوق الأشجار المتدلية عليها، وموائد منبسطة، أباريق ملونـة تحمل المشروبات الباردة ومنها ما يحمل فى جوفه الساخن، يجلس ينفث دخان لفافة، وهى جلست شابكة أناملهـا عاقـدة عليها شاخصة في من حولها، وجوه غابت عنهـا لسـنوات، ملامح تبدلت، وأجساد منها ما نحل ومنها ما إمـتلأ، ألـوان صاخبة، حرائر مزركشة، قلائد حملت الأحجار فثقلت علـى الصدور، وصرخت ألوان أحمر الشفاه.. زهرى.. أو بلـون البرتقال، وورود على الأثواب تكبر وتتضخم، تعرفـه مـن زمن، يخرج من البحر ينحنى أمام خطواتـه، ويـد وهنـت تمسك منشفة تلف خاصرته.. من وقـت هجرتـه زوجتـه المتمردة الثائرة، تتحرك مزركشة بكل ألوان الطيـف علـى ملابسها وعلى وجهها، شعرها وطوله وانسداله إلى ما بعـد خاصرتها، يلفت نظر جميلة ومقـص لـم يعـرف طريقـه

لخصلاتها، أحياناً تلفه بطريقة دائرية ليتوسط قمة رأسـها، وقرط يطول إلى آخر حدود رقبتها، يحمل ورداً أو خـرزاً مطعماً بخيوط ذهبية وأحمر شفاه لم تكن تجيد رسمه علـى شفتيها المدببتين، تركته ولم تلتفت له بحجـم توسـلاته لهـا وبحجم مخلوقة ناعمة صغيرة أثمرتها تلك العلاقـة، عقـدت النية وانطلقت إلى عالمها وظل هو في عالم لم يتغيـر لـه، هدوء في صوته وحركاته متزنة وعاداته الروتينية، يجـاور الرجل المتحدث إلى جميلة بين الحين والحين مرحباً

- أين أنت طوال هذه المدة؟!....
- مشغولة
- بماذا؟
- أقرأ وأكتب
- أتمزحين؟!!....
- وطبعت بعض الكتب
- شيىء جميل جداً وجيد!!.... إذن أنت تحققين ربحاً من حجم مبيعاتك، والمكاسب التى حققتها، أقصد ثمن الكتاب وصل إلى أين؟....

صفنت جميلة، لم تكن مهيأة لمثل هذا السؤال.. وكثيراً ما تسمع مثل هذه التلميحات ودوماً تنسى حكاية الثمن والبيـع

والشراء، تلعثمت في كلماتها، تود لو تصنع كذبـة تريحـه بها.. ولكنها تخيب ولا تصيب في تركيب الحكايات.. وتذكر عثمان في موقف كهذا لن يتوانى عن أن يفرد لـه بسـاط الخيال، ولكنها لابد وتجد إجابة :

- أنا أحاول الاتفاق مع بعض دور النشر وسأجنى ربحاً

وبدأ يفرد ويسرد لها عن عالم يعرفه عن الكتب

كتب هذا جميل، روايات!!.... أظن أن كـل الروايـات تشابه بعضها بعضا، بداية ونهايـة، لا جديـد، الكـُـتاب جمعيهم طريقتهم واحدة.

جف حلق جميلة ودارت بها الأرض، بل يكاد كـل مـا أمامها ينفلت، أباريق العصائر ساخن وبـارد يخـتلط كـل بالآخر، لم يقرأ ما في عين جميلة فلازالت أحياء وأمواتـاً.. رحى الحرب تستشرى في عروقها.. تخـال نفسـها تلـبس قلنسوة وتلف خصرها بحزام من الديناميت، تبحث عن وجوه لتسأل.. لأجل من ذهب من ذهب؟!!.... لأجل مـن كانـت مأساة التاريخ؟!.... في عظام ذابت وأجسـاد تحللـت فتيـة محبة.. مقبلة للحياة.............

الفصل السادس عشر

أنين مدينة

كان مقعداهما قريبين والمسافات ضيقة والحديث له مذاقه حين يغلفه الهمس.. تحكى لها.. وتنتظـر الأخـرى نهايـة لكلماتها.. رؤى كثيرة تسمعانها، وزوجها الجالس على رأس الطاولة الممتدة طوليا إليهما، نظارته سوداء تحجـب نـور الشمس، ونبرات صوته خفيضة، وهى وزوجته كانتا الأشـد قرباً.. حكت لها عن رحلاتها معه البعيدة، حيث الأمريكتين والقريبة على جبال لبنان، تميل جميلة بجسدها ناحية مقعدها، تشدها الأمكنة وأسماء لها تسمعها، وحين تصف الأخرى لها تكون قد حلقت في سماء الأمكنة بيروت وجبـل يحتضـنها، وشريط ساحلى ضيق، ووطن هو الأقرب لها من هناك.. من الشمال.. تعبر إليه.. وحيفا تصافح الجنوب، ترقب غـروب شمس يوم راحل.. وشروق يوم آت إليها.. استعدلت جلستها لتقص حكايتها مع الجنوب والشمال، وكل ما تصفه لهـا لا يعادل وطنا لها هناك..

- لمحة بصر وتصلين إليها، من البحر الميـت.. مـن الضفة الشرقية تنظرين القدس بمآذنها من خلف النهر، ومن حيفا تطلين على لبنان.. حيفا الأجمل والأروع

رفعت لها عينيها وراحة يدها تضم منديلها

ترد عليها جليستها :

- لكنها لم تعد لكم

كلمات قصيرة مقتضبة، لصخرة إنبجست منها نتـوءات وحراب، تحاول الوقوف من خلفها لتجد لها مكانـاً عليهـا.. تطالع لبنان من على صخور حيفا.. صخرة تفصل ما بينهما، تعيق حركتها بل تشلها.. هى الكلمة.. هى الصخرة الناتئـة التى مزقت كيانها.. تلقى بها للوراء لكى لا تـرى وتعـرف المكان، دون الحدود، دون القيود، كلمات ألقـت بهـا فـي وجهها، فحطمت ضلوعاً تحتوى قلبها "لم تعد لكم...."

***

تعود لائذة بكلمات كتبتها أختها في أنين مدينـة.. تبحـث عن مدن لها هناك.. وكيف لهذه الصغيرة في يوم ربيعي أن تقف بجوار جميلة من رأس الناقورة "حيفا" ترفع لهـا يـدها مشيرة لوطن هناك..

- أنظرى من هنا نرى لبنان

تلتصق جميلة بالصغيرة تحاول أن تتعربش على حـدود نظراتها لتصل معها إلي بقاع أرض تبكـي علـى أسـياج

تنحرها.. على مرمى بصر كان لهما أن يعدوا، كفاً بكـف.. ويصلا لآخرحدود الشمس.. حيث مدن هناك تلم صرخاتها.. لماذا؟.. وإلى متى؟..

تقلب جميلة صفحات أنين مدينـة ملقيـة جسـدها علـى سريرها، تستعين بوسادة تريح رأسها عليها.. تلتقط حـروف الكلمات وتعود تصفن في فضاء حجرتها.. وفي كتب متكومة حولها.. تحمل إليها كلمات العتاب والملامة فكل في انتظارها لتطل على عوالمها، تحثها على أن تحمل زادها وتمضي في رحلتها إليها وهي التي لا تعرف بـأى حـال تكـون حـين عودتها؟!.. تشد صفحات مدينة فتبكي علـى صـدر أخـت حبيبة...وذكريات تكمن في جروح لا تندمل، مجرد أن نقابل أحد الوجوه أو تطرح علينا بعض الأسئلة، تتسال نفس مـن حصار العقل عليها.. حتى يعود الألم.. وفي كل مـرة أشـد ألما.. فالجراح مزمنة.. تائهة فى البحث عن أزمنة بيضاء.. تتقاذفها كلماتها.. تبكي، تنشج.. تهمس لنفسها :

- لم أبكي؟!.. لم فاضت مرارتي علـى كلـمЧتـه؟!.. وسؤاله المضمخ بالحنين

- لم كل هذا الألم يا جميلة؟!

وصياد الأرانب البرية وكيف يـروض أرنبتـه إلـي أن قضت نزفا.. وكيف لغريب يمر بها ويقف على حـد بؤبـؤ العين ليرى روح أبيها وماجد تسكن يمناها ويسراها.

وتدور بالحكاية فتقرأ اسم جميلة علـى صـفحات أنـين مدينة.. جميلة تتفتح كزهرة ربيعية، شمعة مضيئة لأمسـيات رائعة.. وكيف لأنامـل شـقيقتها أن تكتـب عـن جميلـة هناك؟!..وكيف يعرف أبوها أنها من الآن فصاعدا هى فـي طريق مبلل بملح الدموع.. وغربة تبدأ ولا تنتهي.. صـغيرة تلك الشقيقة أن تعرف كيف يقتلع البشر من جذورهم.. وكيف تكون أشلاؤهم متناثرة تنقلها طائرات من هنا وهناك تبحـث عين جميلة عن اسم مدينة بـين طيـات صـفحاتها.. أيـن المدينة؟.. واسم لها؟.. فالوطن مجروح.. مقتول على صفحة البحيرة.. وكيف عرفت الصغيرة مراسم الدفن فـي الأرض الرطبة البعيدة؟!..

نتجرع الوطن ملء صدورنا ولا نسـتطيع اقتلاعـه أو نسيانه.. وذكريات هى محيط يجرفنا لتبتلعنا مياهـه.. تتـألم روحها في جسدها النحيل، تخـاف أن تفـارق علـى أرض غريبة.. وتدفن بعيدة.. تنكرها المدينة.. ترنو لهـا سـماؤها

وأرضها فتضمها مدينة فقدت سكينتها.. لم تعد مدينة.. بـل أكواماً رمادية بلا ملامح كما أرادوا!!... وغريب يمر بهـا يلقي إليها بكلماته

- أيام تموت يا جميلة، تصبح ماض لا يعـود.. مـاض يدير ظهره للأحيـاء.. و كأن الأمس لا يصب فـي مجـرى أيامهم تدميها كلماته.. ترفض موت ماض لا زالت تستظل به.. ماض كيف له أن يموت؟!..وكيف له أن لا يعود؟!!!.....

الفصل السابع عشر

من هناك

تقرأ وتأكل من حروف كلماتها.... تبعثرها.... تلمها.... تغوص فيها، بشعرها المشذب اللامع، تغرس ناظريها علـى سطور كتبتها، تنظر إليها من مقعدها الملتصق في الزاويـة، كتف زميلتها يلامس كتفها، تسمع دقات قلبها المتلمس طريقا على شاطئ الكلمات " تهاني عمرو " وروح كاتبة جميلـة، تضفى إشراقاً ، تفـاؤلاً وانسـياباً حـين تكتـب نصـها الإبداعى.... وجميلة تضيق بها زاويتها ومقعـدها وكلمـات تسمعها ترن.... تطن في مصعد لصعود ونزول.... تحلـق وتحط، والزاوية تضيق والمقعد يضيق، ورجل جاء لمجلسهم يأخذ مكانه على مقعد يختاره من المنتصف، يدس يـده فـي جيب سترته، باحثاً عن علبة سجائره، ينتشلها، يوزع علـى الجالسين، فتشتعل أعواد، ويحوم الدخان مكاحـل للعيـون، ويأتى دور قصة "الغلاية" والرجل صاحب اللفافـات يرجـع بظهره في مقعده، تتدلى ذراعه متأرجحة، وجسده الممتلـئ يتراخى، يتسع له مكانه، ومقعد هناك وزاوية يزداد اختناقها بهما، رائحة الدخان وحلقاته تمسح وجهها، تخترق أنفاسـها، تتحسس وجهها تسنده على راحتها المتعبة.... تطوف بعينيها على وجوه تعرفها، ووجوه لا تعرفها وكلمات تسـمعها....

تفهمها.... ولا تفهمها.... والآخر الجالس في زواية في آخر الجدار، يرتدى اليوم ملابس أنيقة، حذاء أسوداً لامعاً، قميصاً حريرياً تتناثر عليه ألوان منمنمة، يحرك رأسه مزهواً بقصة المصعد، يعلن بعينيه انبهاره ودهشته.... دوماً يدس تحـت ابطه كتاباً أو كتابين، وحقيبة بحجم كف اليد كثيراً ما تسقط من يده على الأرض، تنفجر بمحتواها، يتبعثر منهـا خـتم، ومحبرة ونشافة، ينحنى يلمها، يعيدها إلى محبسـها، يغلـق عليها، يريح نفسه منها بوضعه إياها على النضد المقابل له، تتمدد تنكمش لتعود كما جاء بها في بداية مجلسهم، لتسـتعد لرحلة العودة معه، ولحظة يتخاص مـن كتابيـه " خارطـة الجسد " "وبيض النعام" ينتفض من مقعده ليتبعها حين تغـادر مجلسهم ويسلمها ما منع تداولـه، ويعـود يزفـر بأنفاسـه، يريحها، حيث هدية من نوع فريد.... هديته الدائرة دوما إلى عودة إليه مرة أخرى، يمد يده يستعيدها بعد انقضـاء المـدة المتفق عليها لدورة اخرى، لخرائط لم ترسم بعد وطرق إليها لازالت بعيده، ويأتى اليه دوره ليقـول قصـة عـن رخـام وركام.... تبحث من زاويتها الضيقة عن الرخام وسط الركام فلا تجد، تنهض زميلة أخرى تقرأ وتقول قصتها.... ويبقـى

نداء آخر.... لوطن يبتعد عنها أكثر.... لابل يشتد اقترابـاً من هناك....

****

مشذبة لشعرها، خطت على أهدابها، ضـمخت رموشـها بمكحلتها، رموشاً لم يعد يظهر منها ما قد تمسك به فرشاتها، ومسحوق أحمر باهت مسحت به خديها، وفم رقيق رمت إليه بأحمر شفاه لتنطق به شفتيها، تضيىء وجهها آلة التصـوير، فتفتح لها عينيها على آخرهما، وتميل بغـنج ودلال لتكتمـل صورتها في عين عدسة التصوير، ترخي أهـدابها، تسـرح ببصرها متنهدة للصبا الذى ولى، وبعـض مـن خصـلات شعرها لفتها، فتشمعت على حواف كتفيها، بعينين لا تمـلان الإنفلات نحو مدخل القاعة لرصد القادمين والمغادرين، تضم حاجبيها قد يسعفها البصر، ولكن تقطع عليها كل هذا عدسـة التصوير، فتبتسم منبهرة مندهشة للقطاتها السريعة، ما تلبـث أن تتكىء على المنصة الجالسة خلفها تنظر الجالسين أمامها، وتعود ملتفتة لصاحب الكلمة يقول فيها، عـن تلـك المـرأة قمرية المولد.... قمـر يـنكمش، يصـغر، تتحسـس لـه وتنكمش....

يا لقلبها المرهف!!.... ويا لرقتها وهـى تـداعب أوراق الزهور المستنيمة أمامها على المنصة!!.. لفافتها مـن ورق منكمش، تحتضن زهوراً فيها لغز الحكايـة.. يمـد السـيد المجاور لها من المنصة يده يلتقط وردة حمـراء، يستنشـق عبيرها، يملأ صدره على الحلم الذى كان.... مسافراً خلفه بعيداً وسط كلمات يقرؤها زميله، يحكي عـن رومنسـيات مجموعتها القصصية ونجيمات تسقط على وجـه القمـر.... وتعرف عبور القنال من خلال حبيب مسافر إليها، وطـائر جريح خبت نجومه الذهبية على كتفه، تنظره نجمة سـيناء، ورود بنفسجية مرخية لأوراقها على المنصـة مـن مكانهـا الأخير لم تمتد إليها يد لتلتقطها.... ورود لا تبوح ولكن قد يعرف الجالسون هناك عنها.. يعرفون عن وجعها الأبدى.. من خلـف تـلال مـن سـهول وجبـال.... مـن أرض الأحراش.... من غربة لا تاريخ لها ولا عنوان، شدت قامتها وامتطت قلمها وكتبت عن اسم بلا عنوان.. انتفض لها رجال ونساء، كتبت عنها أقلام قد تسترد لها الهدية، وتلك المـرأة التى من برج القمر.... حين كتبـت عـن نجمـة زرقـاء شارونية، ويد تقطر دماً، ودرة مدفونة، ورصاصات، كـان

تقطيعها شارونياً ، لم تتوان عن أن تنزع عن وردة بنفسجية ورقاتها التى لمت فيها قضيتها، تريد أن تبعثرها.... تطيرها أوراقاً خريفية حيث هناك، ولا تكون إلا هى المـرأة التـى تحكي.. إمرأة واحدة من برج القمر.... تعـود إليهـا آلـة التصوير تقطع كل الخيوط الممدودة، تنظر إليه مـن علـى منصتها، تشير له كيف يلتقط من زوايا مختلفة وأين يـذهب بعدسته المتحركة، الأستاذ سادر فـي كلمـات كتبهـا عـن مجموعتها، وشهرزاد وجهاز الكترونى، وكيف باتـت ويـم أصبحت، شهرزاد التى كف جهاز إرسالها، باتـت جهـازاً يستقبل.... شهرزادنا في محنة ويالها من محنة!!.... إمرأة من برج القمر كان لها أمس تلم به خصلات شعرها، تعقـد عليها بخيط باهت، وحين تنظرها جميلة تجد أن ما بعد هـذه لا شيء.... تعود ترفع يدها من خلف المنصة لتؤكد علـى تلك الخصلات المتشمعة أنها لازالت ثابتة في مكانهـا كمـا شكلتها يد المصفف

****

زميلتها على المنصة وجهها مكفهر.... رحلت إشـراقتها في يوم بهجتها، أمام باقة زهور أمامها يزداد ذبولهـا أمـام

نظرات عينيها التائهتين، تمد يدها تـداعب وردة البنفسـج، تنزع عنها أوراقها، تقرب إحداها من أنفها، فتـدور ورقـة البنفسج تطوف بعينيها على الجالسين، فإذا بالزوج يشير لها أنه سيمض، عيادة المرضى في انتظاره، دروب الأدب لـم تفلح في أن تجنبها محنة هى واقعة فيها.... تختنـق ورقـة البنفسج بين أناملها الضاغطة عليها، تفركها، تود أن تصرخ لها بأن تتركها تهـوي أسـفل أقـدام تسـحق المخلوقـات الصامتة.... تتراخى أناملها عنها، تماس على ورقتها تداعب أحلامها المسافرة، ترحل السحابة الغائمة عن وجهها، تلمـع عيناها، تنظر الجمهور الجالس أمامها.... لتجد مقعد الـزوج خالياً ، مضى إلى عيادته المكتظة، عادت لورقـة البنفسـج تهديها ابتسامة راحلة اليها من على منصتها العالية، وأخرى تجاورها لم تكف أو تكل من تفحص وجوه وملامـح، يـدها على جهاز التسجيل وعين على عدسـة التصـوير، ونـور يضيء وجوه الجالسين، المتطلعين للمنصة

****

الهواء يتكوم في صدرها تود لو تطلق زفراتها في وجـه الجالسين ولهيب الكلمات لا ترغب في سماعها، السيد الناقد

غارق في سرده عن نصوص كتبتها، أفرد لها وأبدع فيهـا، فراق للحاضرين سماعه.... بدأ يكثر النظر في سـاعة يـده وما تبقى من أوراق لم يقـرأ منهـا، ووجـوه الحاضـرين الشاخصة اليه، فخاطبهم قائلا :

- أتمنى أن لا نطيل، فهناك ندوة تلفزيونية تقدم أعمـالاً أدبية نعرفها، قد تشتعل هناك أعواد ثقابها من خلف الجـدار ومن على بوابات الإنتظار.... سيقدمها الناقد الروائي " عبد ا تايه " أتمنى أن تستطيعوا مشاهدة هذا البرنـامج، يرفـع حافة قميصه يحذر ساعة يده من أن تسرع بعقاربها فيفوتـه هذا اللقاء، لم يستطع اخفاء هذه الحركـات عـن الجالسـة بجوراه، زفرت ورجعت بمقعدها للوراء تـود لـو تنطلـق لدارها وتبدل ثيابها وتنفض ما علق على وجهها من مساحيق التجميل، وهاتف يسكن مكانه ينتظر راحة يدها لتحمله، تدير قرصه، على رقم منقوش على حواف أناملها، تسـمع رنينـاً يقطعه صوت ينتظرها متحفزاً لمكالمتها، لتبدأ امرأة من برج القمر في حديثها عن امرأة بلا عنوان تحمل هوية، وشـبحها الذى يلاحقها القلق يسألها:

- من تكون؟!.... ومن أين أتـت اليـنـا؟!!.... وكيـف نصرفها الى أبراج بعيدة نائية لا يطل عليها قمر؟....

تتخاق دمعة على خدها، تود لو تقول لها على حبل هواء ممتد بينهن :

- هي امرأة أحب أن ألقاها..

****

تعود جميلة وحيده تجلس أمام التلفاز تفتش عـن رمـز محطتها الفضائية.... عن قبة ذهبية تجـدل عليهـا خيـوط الشمس لتودعها هدية لقلب فجر المدينة العتيقـة، وسـاحات رخامية.... صخرية.... تنـبجس مـن زواياهـا أشـجار الصنوبر.... تظللها زرقة السماء، وفسيفساء البناء الشـامخ على جبال الزيتون هناك.... تطـل علـى عـين أمهـا.... وذكريات طفولة لن تموت.... ولهفة تنبض في كيانها لوجوه هناك تشتاق لأن تراها من وحدتها، وكلمات السيد فضل تهز كيانها المسلوب

- الوقت يا سادة.... أخاف أن يمضى الوقت عنـى.... فهناك من سيشعل أعواد ثقاب....

في تلك الليلة غابت أعوادها لليل يدثرها بدفئـه، وتـأتى حلقة تنتظرها والجميع معها، ناقد.... وكتاب.... وكاتب من دروب المنافى "فيصل حـورانى " مسـمية... هجـرة.... إقتلاع.... كتب.... إبادة.... خمسون عاماً لـم تمـض.... خمسون عاماً عائدة.... في تلك الليلة سمعت جميلـة عـن كاتب من هناك وحيدة أمام تلفاز ورمز القبة الذهبية، نسـيت أعواد ثقابها... وكلمات يحملها لها عبدا تايه من هنـاك... أمام زمن توقف في زمانهم هم كم هى بعيدة المسافات فـي غربة تسكن خلف الرأس... مسافات من هنا...إلى هناك

الفصل الثامن عشر

حبات دموعها

حين إغتالت سهام حقدهم قلب جميلة، بعد يوم تحوطـت فيه بحب عظيم حملها الى آخر حدود السماء، ولا يكاد ليلـق بها لأعماق الأرض لتعود حيث طريقها الطويل، وعـين لا تستطيع إدراك مداه ومنتهاه.... لم تطاوعهـا نفسـها علـى الركون في بيت تضمها جدرانه، جدران قد تعيد عليها كلمات قالوها فيها.... جدران قد تسمعها أصواتهم.... قد ترى منها عيونهم، هو إنفجار يدوي داخلها يكاد يصرعها.... ومشوار لها على طرقات المدينة البعيدة، تلملم من عليه حبات دموعها المسافرةعلى طريق غربتها.... من على طرقـات المدينـة، مصابيحها مدلاة.. مضاءة.. ومصابيح قلبها عتمة اسـتقرت في قاعـة مشـاهد.... وذكريـات.... وأبـواب النهايـات المفتوحة.... يلاحقها سؤال بعدد وقع خطاها

- حين ترحلين يا جميلة.... من يحملـك إلـي ترابـك هناك؟.... هل هؤلاء؟!!..

صرخت روحها فزعة وجلة :-

- لا....

- من يكونون إذن يا جميلة؟....

تأوهت بآهات غربتها.... تذكر فيها عبد العزيز الرنتيسي حين حملته قلوب أحبته كان هو معلمها.... تعود لحيرة قلبها من الذي سيحملني الى آخر حدود النهايات؟....

- هؤلاء؟!!.... لا....

مع وقع خطاها تتقاطر دموعها الحاملـة لسـؤال يحمـل إجابة.... فتحول بينها وبين النور.... تفتش في عتمة ليلهـا عن يد تمتد إليها... قلب تحن إليه.. يحن إليهـا.. تسـتلقي بجسدها فيه تنام ملء جفونها.... غير آبهة بنهايات تقتـرب منها، تذكر أباها الذى عاش وحيداً من الأنـيس والرفيـق، وعزيمة لم تخذله.... إرادته كان ينحت بهـا فـي جـوف الصخور، يشق طريقاً لأجل الوصول.... فوصـل لقلبهـا وقلب آخرين.... لا تذكر من هم.... ولكنهم لازالوا يعيشون بنبض حياة.... وأخيها حين إختار الطريق.... مضى بـه... ولم يقف ليلتفت إلى الوراء.... أما هي فليس أمامها سـوى معول تشد عليه إرادتها، تهدم به ما شاخ من بنـاء وتهـدم، تمضي بخطاها.... تبنى.... تمضي حيث من مضوا قبلها.

الفصل التاسع عشر

حبات لؤلؤية

حبات لؤلؤ مهداة إليها ذكرتها " بكاميلو خوسـيه " حـين قطف زهرة من على حافة الطريق وحفظها طيلة الوقت في كتاب، فتصبرت بين وريقاته، إعتقد أنها الأجمل حين يهديها، ولؤلؤات "سلطانة" حين تصبرت خارج محارتها إلى جـراب مخملي يضم أروع معاني الحب والانتمـاء..تـأتي تحمـل حقائبها من مملكة البحرين... تحكـى عـن ملكهـا وولـى عهدها...كلمات لها وقع في أذن جميلة، ملك ومملكة وأعتاب قرن جديد لممالك لازالت قائمة!!....

هل هو ملك الفقراء...أم أمير...صاحب السمو، تتضـخم عبارات تنطق بها سلطانة على مسمعها، تتعثر على ألقـاب تعجز عن فهم ما ورائهـا، إقتفـاء أغوارهـا... ولؤلـؤات البحرين لازالت غارقة في قاع بحر العرب هـى الأقـرب لملامحها، وساعدا الرجل الهرم فوق صفحة الماء مجدولان

على حبال مركب عائم يتشبث بهما، ووعاء شبكى يحتضـن صدره ويلف بخيوطه على رقبتـه فهـى التـى سـيملؤها ويطرحها على ظهر سفينته، وفطام يقبض على فتحتي أنفه، يحبس بها أنفاسه التى هى وقوده في رحلة النزول إلى القاع، تنفلت السواعد عن حبال مجدولة بها إلى مغاصات اللؤلـؤ، تدلهم عليها عين عذاري وتشير إليها نجوم لها أسماء يهتدون بها كمن يقرأون في صفحات كتاب في زمن مات الحـرف فيه.. والكلمات...من ليل غابت نجومه، يفقد مـنهم رجـل ورجال تحملهم سفينة على صفحة بحر العرب...عيون الأهل لازالت بعيدة، وعين رجل لم يعتد فتحهـا إلا فـي أعمـاق سحيقة، يلتقط أكماش الدانات، اليـوم ينـام الجسـد نومتـه الطويلة، يكفن في ما تيسر من قماش ثوبه وأزراره والصلاة عليه وإسقاطه بالحبال إلى أعماق كان يجوس فيهـا بيديـه، ليسكن بجوارها ويختلط الأبد بالعدم... وضرير يركب الـيم معهم من العتمة على صفحة الشاطىء إلى عتمة في القـاع، قد تكبش يداه وتلم في وعائه الشبكي على صدره، وجسـده المجدول بحبل لحين تشده سواعد الرجـال ويرفعونـه مـن العتمة إلى عتمة هو تائه فيها، له أنامل ماهرة قـادرة علـى

البحث في القاع عن محار ضارب بجذوره، وسـط خطـر البحر وتياراته، وجوارح متحركة سابحة فيه، مرتكزة فـي قاعه أنامل تقبض على محار بين نتوءات بحر تفجر تيارات عنيفة قوية يعرف سرها، وتكوينها، ذلك الحيوان الرخوي لا يكف يفرز مادته الكلسية لأجسام غريبـة لا تكـف تـدخل المحار، لتستدير اللآلىء فيها، رحلة تكوينها وعتمة يعـيش فيها...عتمة هو قادر عليها... تفتح سلطانة حقيبتهـا، تمـد يدها لجميلة، تهديها قرطاً ذهبياً مرصعاً بحبـات اللؤلـؤ، وشغف جميلة بدنيا اللؤلؤ وحكايـات الطواشـة،امبراطورية اللؤلؤ في الدكاكين الصـغيرة والمقـاهي، عطـر الأجـداد وجهادهم ليفوح عبيرها علينا،وأخبار صـفقات مراهنـات، وأحاديث محاصيل المواسم وحياة لهم مـن أعمـاق بحـر العرب.. محار وأصداف، وجمع حبـات لؤلـؤ بيضـاء.. صفراء..زرقاء.. سوداء...تسيل عليها حبات عرقهم المحملة بأسى يشجي القلوب، لؤلؤات يحملونها إلى بلاد بعيدة.. وبلاد قريبة.. لتبدأ رحلة الغربة من جديد، حبات كانت معهم فـي سكينة البحر ورهبته، وسكين مدببة الرأس تشق محـاراتهم، لتظهر لهم حبات تضاهي عرقهم المسكوب عليها... من تمر

وقهوة، ومن بزوغ فجرهم العنيد، وصوت جهوري ينـادي فيهم " أطلبوا ا " يردون بصوت واحد " يا فتاح يـا رزاق يا مقسم الارزاق " وشاطىء لازال بعيداً عـنهم وقهـوة الطواويش وحكايـات لا يقـف مـدها..حريـة... تعنـى حياة...حلفاء وجبهة المحور ومن يبقى بعدهم؟...يلفهم ليـل يدثرهم وحيوان رخوي قابع بين صدفتين يبغـي الخـلاص، طيلة ليلهم وحركته الدائمة، يفتح ويغلق صدفته، فلقد أزفـت آزفته، لينتهى مع ديدان بحرية يدب معها...حياة بحر العرب تحملها سلطانة في حبات لؤلؤية تستدير على قـرط ذهبـي، ستخلد للسكينة على أذن جميلة، تبتسم سلطانة لهدية أحبتهـا جميلة قائلة

- كان أهلي في الطواشة لهم حياة، وصلت تجارتهم فيها إلى فرنسا، أدواتها وما يخصها كانت لوقت قريب في بيتنا... يوم سألت أمى عنها أجابتنى دون أن تكترث لسؤالى:

- ألقيت بها ولن تعود مرة أخرى،أين اللؤلؤ ولـم تبـق حاجته؟!..

هزتها كلمات سلطانة وأحدثت في نفسها انفعالاً يقتـرب من حد الصدمة، لم تعد تصغي إليها بعد ما قالت لهـا، بـل

أخذها ذلك المشهد المروي لها في دائرة حـزن وتسـاؤلات تكبر وتكبر في عقلها... أم سلطانة لـم ألقـت بكـل أدوات الطواشة؟!.... ميزان، منخل، مغرفة نحاسية مناخل وتبانـة تلم حبات لؤلؤ سالت من عليها حبات عرق الرجال، وقمـر يضيىء ليلهم على صفحة اليم وحبات لؤلؤ تحملها راحـات أيديهم لمعت لحبات عرق تسيل عليها فتحدث وهجاً، نوراً تتماوج، تتراقص عليه صفحة اليم، فيتوارى قمر ليلتهم حياء للحظات هو شاهد عليهم فيها، عادت سلطانة تمسك أطـراف حديثها تقترب أكثر من جميلة التى باتت هناك على أطـراف الجزيرة العربية.

- سنوات طويلة وأنت هنا يا جميلة ولكن شعورى بـك أنك تركت فلسطين أمس.

ألقت سلطانة بحجرها في بئر إلى أعماق عتمة تآلفت مع صخوره الصامتة وأعشاب نبتت عليها واخضر لونها.

أى حجر تلقى به سلطانة؟!..ليفجر ثورة، يفتت جبلا مـن ذكريات أليمة ترسخ على كيان جميلة...تذكر زوجـاً كـان يحطم فيها لهجتها الكنعانية، وحرمانها من طهي أكلات تحمل مذاقات جدتها وأمها.. كيف تقدر جميلة أن تنسى؟! وهل لها

أن تنسى ماذا يعنى أن تكون منبوذاً مقطوعاً عن وطن بات بعيداً بلا وزن ولا ثمرة

ولا حاجة لأحد بك.

تظل جميلة تعاند وجودها في كـل مكـان، حيـث هـى فلسطينية، وهوية تحملها بداخلها

الفصل العشرون

بطاقة من القدس

يقترب الوقت من جميلة لمقابلة عثمان، تخفي أفكارها لما يمكن أن يدور بينهما من حوار.... قد يكون إنسياب النيل في مجراه أو ثورة البحر من نوات الشتاء، ترمق مكان جلوسـه منذ هبوطها بسيارتها أول الطريق، تراه جالسا مسنداً رأسـه للجدار، برقبة متصلبة متيبسة في اتجاه لا يلوي عنه، لتصل إليه من حيث لا يتوقع، تهب بعاصفتها تنتشله من إسـتغراقه ما بين دوامة الانتظار وهوة اليأس، ينهض يحييها لقـدومها فلم تخذله في موعدها ولن يعـود أدراجـه قابضـا علـى الريح.... شد المقعد الخشبي دون توقف لكلماتها :

- إحك لى ما أخبارك؟....

- أقرأ طوال الوقت، لم أضع من وقتي أبدا.

- ألم تذهب لراسم بعد عودته من الأقصر؟

يمسح براحته على رأسه ثم يمررها على ملامح وجهـه وكلمات يستعد لها...

- أنا عائد لتوي من عنده.

- وما أخباره؟....

- هو لا يفتح لى أوراقه ولا يصارحنى وحين أسأله عن أصدقاء أدباء وصحفيين قد يكون التقى بهم في مؤتمر أدبـاء

مصر، لا أحصل منه على إجابة محددة، يحدثني وهو يتنقل من مقعد إلى مقعد في حركات قلقة غير مسـتقرة يرمينـي بنظرة خاطفة ما بيني وبين كتاب، يقلب في صفحاته قـائلا لي:

- هل صحيح أنك عشت في هـذه البلـد سـنوات.. لا أصدق يا عثمان... وهل رأيت ما رأيته أنا فيها؟!....

يتوقف قليلاً ليعود ينظر لجميلة بعينين يزداد لمعانهما ثـم ما يلبث أن يسدل أهدابه قائلاً :-

- وهل كثير على رجل مثلي أن يعيش في الأقصر أربع سنوات في مهمة عمل مكلف بها، ولكن هذا ليس موضوعي معه المهم في الأمر هو ما جاء به راسـم مـن هنـاك يـا جميله....المعجم.

- المعجم!!.... أي معجم

- معجم أدباء مصر ٢٠٠٤

رفعت جميلة يدها تحاول أن تسترجع ذاكرتها....

- ذكرتني يا عثمان حـين طلـب منـا راسـم مـلء الإستمارات بأسمائنا وكتابة عن أعمالنا من القصة والروايـة كان المطلوب يومها صورتين على إستمارة، ويعـود يـذكر

وينبه بأن مدة إرسال البيانات والإسـتمارات إلـى القـاهرة قاربت على الإنتهاء والثقافة الجماهيرية تستحثه على سرعة تقديمها

توقفت قليلا تسأله مندهشة:-

- ولم يستحوذ هذا المعجم على إهتمامك؟!....

- صورتي يا جميلة.. لأول مرة في حياتي أجـد لـي صورة في كتاب.

ساد صمت ما بينهما.. تعتدل جميلة فـي جلسـتها تعيـد التفكير فيما قاله لها وهو شارد بنظرتـه بعيـداً يستحضـر صورة له على صفحة من صفحات المعجم، تقطـع جميلـة عليه خيالاته قائلة:-

- أكمل لم توقفت؟!....

- المعجم، إسمي وصورتي، وإسم بلدتي التـي شـهدت مولدي، هو معجم ضخم جداً.

رفع ساعديه لتتقابل راحتاه ويفسح مساحة أكبر يسترسـل من خلالها في حديثه :

- ثمانمائة صفحة بل أكثر.... صورتي وإسمى بجـوار أكبر أدباء مصر، حين يفتح المعجم، محمد السـيد عيـد.... محمد أبو سنة ويجدوني....

يتوقف لدقات قلبه المتلاحقة ويعود يكمل مزهواً بنفسه :

- إسمي وأعمالي تقابل صفحات هم فيها، قدر لـي يـا جميلة أن أحيا عمري هذا لأعيش هذه اللحظة.... صورتي.. وأنا والمعجم.

فرحته وكلماته إليها كانت محملة بالأسى والشجن، تلمـع لهما عيناه، وحركات أصابعه التي يشرح من خلالها حجـم صورته ومكانها.

- مسعود شومان ياجميلة طيب القلب رقيـق المشـاعر كتبت عنه قصة منذ سنوات بعيدة، هو لم ينسني بل ذكرنـي وأدرج اسمي في معجم أدباء مصر.... لحظات نادرة مـن يوم عاد.

توقف مد كلماته وغاضت ملامح وجهه....

- لم توقفت أكمل؟!!..

- لم أجد إسمك يا جميلة...فتشت ما بـين الأسـماء... ومررت بحروف الأبجدية فلم أجد!!...

تداركت جميلة لحظتها أنها تكتب الكلمات كما هو يكتبهـا وأنها ملأت استمارة وتركت صورة لها.... وبحماس ملحوظ يكمل حديثه لها :-

- وجدت صوراً لأديبات كثيرات، فتشت، فتشـت عـن صفحة لك فلم....

توقف فجأة يدقق النظرفى ملامـح وجههـا، يحـاول أن يحاكي صمتها

- أراك حزنت... هل أخطأت حين أخبرتك بأن صفحتك لم أجدها في معجم أدباء....

عاد لصمته..... ليعود مرة أخرى :

- أنت حزينة الآن.

قاطعته بحزم قائلة :

- عثمان لم تصر على أن تذكرني أن هناك خطأ مـا، وأن هذا الخطأ في دائرة أنا فيها؟

تلعثم واجتاحته موجة إرتباك لردة فعلها :

- أنا لاأقصد يا جميلة.... بل ألوم نفسي أنني تسببت في جلب الأسى إليك، ثم لعلمك أنا متأكد أنه خطأ غير مقصـود وأنه "سهى عليهم"

رفعت جميلة رأسها تفتش بعينيها عن غيمة فـي فضـاء سمائها تعاق بصرها عليها، قد تنقلها بعيداً، فتطالعها لافتـة " قطاع الرأس السوداء "

تقتلع بصرها منها لتمتطي جواد الفضاء مسافرة به حيث هناك بطاقة وصلت إليها كسـرت الأغـلاق والحـواجز... وصلت رغم الحصار والطوق، بطاقة حملـت إسـمها مـن القدس، كتب عليها أنها هناك معهم، لم تعد معه بل سـافرت بعيداً، حيث هناك.... عز الدين أبو صفيه.. عبد ا تايـه.. زكي العيلة وإنهمار لفظته إقتلاعها.. لتغـرق الأرض مـن هناك :

لما حملوا كلماتها من "إقتلاع" وألقوا بها إلى مطبعة فـي أحد شوارع القدس؟.... لتخرج إليهم صفحات مكتوبة يحملها أبناء شعبها تدق الأبواب وتركن على حواف شـبابيك تينـع وتزهر آمالاً تسافر إليها..

وبطاقة حملتها يد الأب التي قبضت على كـل جمـرات الوداع للراحلين دون أن تصرخ من عنفـوان الألـم ، بـل مضت عبر الطرقات تبحث لجميلة عن بطاقة يكتب إسـمها عليها ويسجلها مع العائدين وكلمات

أمها له :

- ما الفائدة.. لقد رحلت جميلة ولن تعود.... لم تتعـب نفسك في ملء البطاقات وتسديد الرسوم لها ولإخوتهـا؟!.... لم تكل خطواتك من طول الطريق وبعد المسافات.

يتمتم لها بفؤاد مجروح :

- بل هي عائدة.. حتماً ستعود.. سأرسل لها بطاقة.

وتذكر جميلة حين سهت عن ورقـة خضـراء تحملهـا وعليها تاريخ ختم الخروج، يبرق لها أبوها بحتمية حضورها على أتم السرعة وإلا سقط تـاريخ خروجهـا ومعـه حـق عودتها، وتصبح ضمن جموع النازحين..لا تستطيع أن تنسى هذه الليلة وكيف حزمت أمتعتها... لاتعرف ما الذي تلمه في حقيبتها.. تاركة اطفالها، تتحرك بين الحجرات وبين لحظـة وأخرى تغرس عينيها على تاريخ خروجها والتاريخ المعلـق في ساعة الحائط، ولم يتبق سوى ساعات، يحملهـا قطـار

سيدي جابر إلى رمسيس لتتوقف عجلاته لخال فـي مركبـة القيادة يلفحها الصقيع.... تلف قـدميها بشـالها الصـوفي، متكومة في مقعدها، تنظر الوقت الذبيح فـي سـاعة يـدها وساعات قادمة قد تلقي بها خلف البوابات الموصده، لا تريد ان تسجل إسمها فـي بطاقـات النـازحين.... البيـت.... الأرض.... الصبى الذي كان هناك.... مـن تكـون بعـد ذاك.... أيعقل كأنها لم تكن؟.... تبقى منزوعة مقتلعـة دون أحد من هنا أو هنـاك.... وقـع مـن ذاكرتهـا مـا وراء المحـطات كلها، لم تعد تحمل سوى ذاكرة واحدة.... الوطن الذي لابد أن تقطع كل المسافات لتصل اليه.... الصقيع يكاد أن يجمدها، يلقي بها حيث هناك، لتعبر خلف البوابات رافعة بطاقتها من وراء حاجز الزجاج، تناولت المجنـدة تصـريح خروجها، ترميها بنظرة تتفحصها قائلة :

- إبتعدي وعودي مرة ثانية حين تسمعين إسمك.

تختزن المجندة في ذاكرتها وجه امرأة عائدة تمـر فـي لحظات قد تكون الأخيرة.... وجميلة تسمع وقع الختم علـى تصريح دخول.. تسمع اسمها تناديه المجندة مـع العائـدين، تقترب منها تمد يدها تقبض على بطاقة دخول.. تدمع عـين

جميلة تود لو تضم كل الأكف التي لوحت لهـا مـن البعـد ونادتها لأجل العودة، حين كتب أبوها.... وكتب عز الـدين أبو صفية ويده الممدودة إليها في أرض الغربة، أودعت فيها إسما لها وعنوانا من هناك ليوقع عليـه عبـد ا تايـه.... زفرت بأنفاسها لتعود أمام قطاع الرأس السـوداء وكلمـات عثمان :

- أنت حزينة يا جميله؟...

- عثمان هل لك أن تتوقف عن كلماتك هـذه.... أود أن أقول لك كلمة... ولدت بحزني، وهذا الـذي تـراه يسـكن ملامحي.... هو وجع أتنفس منه وأكتب كلمـات.... فقـط كلمات.... أنت لا تعرف ان لي بطاقة....

تسكت كلمات جميلة، تفسح طريقا لدمعة تخشى السقوط.

- نعم لى بطاقة.... هناك....

الفصل الحادي والعشرون

قطاع الرأس السوداء

عثمان أمامها ووجهها يقابل اللافتة العريضة المثبتة على قوس بعرض البوابة الحديدية " قطاع الرأس السوداء " وكم من المرات جلست أمامهـا جميلـة.. لـم انزعجـت هـذه المرة؟!!... لأول مرة تدقق فتقرأ اللافتة المثبتة فوق البوابة، يفتحها ويوصدها بقوة الدفع التي تصنع صـوت إرتطامهـا، جنديان من الأمن المركزي، تخرج منها عربـات مصـفحة بفتحاتها المغطاة بأسلاك متشابكة، تنقـل العسـكر ببـزاتهم السوداء، لم اختير هذا اللون الأسود؟!!...ولم قطاع الـرأس السوداء؟!!.. الهراوات فى أيديهم، ذاهبين بها نحـو هـدف محدد وتعليمات لاجدال فيهـا، تعلـو الأصـوات.. تنـزف الحناجر بالهتاف فتذبحها هراواتهم، تحطمها.. تكسر عظاما، وأنفاس ملتهبة تختنق بالدخان المحمل بالغاز، وعلى الناحيـة الأخرى بنايات تحوط السور من ناحيـة الغـرب، بنايـات تحجب مدينتها التي هناك.. ظلال مدينتها تقترب منها لتطـل على قطاع الرأس السوداء.. وبنايات باتت تشبه مدينتها تطل بشبابيكها عليها، وتقطع المسافة بين مـدينتها التـي تـزداد اقترابا منها تلك المقطورة التي تنثني في التفافها بما تحملـه من صفائح سمن وطحين وسكر، غذاء لجنود يلبسون بـزات

سوداء. وعثمان لم يتوقف عن مواصلة أحاديثه، أحداث بارع فى نسجها من رنات صوته وبريق عينيه وارتعاش حاجبيه، تتنهد جميلة، تريح ساعديها على النضد ونظراتها ترحل إلى فتحات الشبابيك... أهي عيون غزة تطل على قطاع الرأس

السوداء؟... وأهل يزورون ويحملون السلال... لمن؟!...

تحمل الحلم فى عينيها باقتحام البوابات لترى ما يجـ رى هناك داخل قطاع الرأس السوداء.

****

تلمح جانباً من وجهه وهو ينفخ ويسحب أنفاسه من قاع النرجيلة، يطلق دخانها عبر فتحتي أنفه حراً طليقا، لترتـ د ويذوب... يذوى في الهواء فوق جدار يحوط بوابـ ة تحـ ت لافتة " قطاع الرأس السوداء " ما إن رآها حتى ألقى ما بيده جانباً وفي لمحة بصر كان النادل يرفع النرجيلة من أمامه، ينفض يديه منها وكأن شيئا لم يكن.... ولقاء بينهما بعد زمن ليس بقصير، بدأ المكان لها بمشـ اهد جديـ دة تراهـ ا لأول مرة.... شدت مقعدا يقابله ما إن جلست حتى رفعت عينيهـ ا إلى وجهه فكانت ملامحه بعيدة تعود إليها صورة وجهه ببطء شديد مع برودة كلماتها، ما بينهما كتاب مقلوب على النضـ د

ينتظرها، وعادة لم يكف عنها في لف أغلفـة الكتـب حـين يحملها، لإخفاء عناوين روايات انتقاهـا.... أسـماء كتـاب كتبوها.... قد يكون زماننا غفى عن ذكرهم.... أما هو دوما باحث في أكوام ملقاة على أرصفة الشارع الطويل في " النبى دانيال " يتوهج لأفكارهم ولبريق أسمائهم الذى لم يخب فـي عينيه، يلف عليها لمرة أو مـرتين لطمـس معـالم كتـاب يحمله.... وخصوصية يستمد وجـوده منهـا.... يقـرأ.... يقلب.... أو تـراوده فكـرة دسـها فـي أحـد كراتينـه المتكومة،جالساً أمامها يعقد راحتيه ينظرها قائلاً :

- غيبة طويلة يا جميلة

-.............

لا ترد

- تبدين اليوم أكثر إشراقاً

ضحكت جميلة ودهشة تصطنعها لكلماته، فبادرها قائلاً بصوت خفيض يفيض مرارة :

- أظنك لم تضحكى منذ زمن؟!!

- بل ضحكت كثيراً

- لا يهمك من شيء، كل ما أريده، الإطمئنان عليك

تجتهد لأن تجد كلمات للخروج من حالـة أصـابتها.... مكامن ضعف... مواطن قوة تتجاذبها....

- وأنت ماذا فعلت طوال هذه الغيبة؟....

- قرأت كثيراً.

- في أية قراءات؟....

رمقها بنظرة تحمل سخرية مبطنة:

حين أمسك بكتاب لا أقرأ منه الصفحات الأولـى ومـن المنتصف الى النهاية، قراءاتي كاملة متكاملة يا جميلـة.... وهذا ما ساعدني على اجتياز أزمة كادت أن تطحنـني فـي رحاها، لو كنت من الضعف لكان الموت الأكيد.... صمدت على حواف وأطراف الحكايات فأغرقتني في فلسـفات لـم تخذلنى، كدت أن أجد نفسي، أفتش عن مخطوطـات كانـت منسية، أدركتها تحتضر في قاع الكراتين، ألقيت بها الى منير عتيبة....

قاطعته بصوت خفيض تغلفه الدهشة لحديثه إليها المـنعم بالعذاب والألم:

- وأي روايات هذه؟!!....

- تشتيت إلى موت.. ويوم عاد....

حديثه لم يتوقف، وجميلة عادت تحوم بنظراتها في ذلـك المكان الجالسة فيه، فسقطت نظراتها المتعبة علـى جـدار واطىء منبسط يحوم النمل عليه من وراء مقعده حائراً فـي عدوه وإيابه، ما إن تصل معه لحافة الجـدار حتـى يلـوي عائداً، ومنها لكرة أخرى، قد يجد له مخرجاً ، كلمات عثمان بدأت تهدأ وتهبط إلى حيث قراره الدفين، حين مد يده يلـتقط الكتاب المقلوب على النضد، يعيده لوضعه الطبيعـى يريهـا إياه :

- إليك بهذه الرواية " جنرال الجيش الميت "

عاد يقلبها مرة أخرى قائلاً لها :

- حقاً إنها رائعة أدبية، لا أريد أن أقطع عليك متعتـك حين تقرئينها

ولكن نفسه المحملة بالأسى لم تطاوعه فأخذ يقص عليهـا ما أخذه من هذه الرواية، وجميلة إرتاحت نفسـها لجنـرال رافقه في رحلته المريرة لينسى عثمان مرارة نفسه، والنمل لازال حائما على انبساط الجـدار أمامهـا.... ويبـدأ فـي

الاختفاء حيث الطريق الى جحورهم، يحملون بقايا من فتات آحاداً .... أو مجموعات لحجرات أقاموهـا لليـالى الشـتاء الباردة.... شاخصة نحوهم ورحى دائـرة علـى صـدرها وعقلها بروحها التائهة وأذناها تسمع لـه مـا يقصـه عـن جنرالات ايطاليا.... ألبانيا.... سكان الجبـل الاسـود.... حروب بلقانية عانى منها كثيرون، صـرب بلغـاريون.... يونانيون ومهمة الجنرال لاستعادة جثث لأبناء وطنـه بعـد مرور سنوات طويلة، لمعت الفكرة في رأس جميلة، مقاطعة دون تفكير :

- ما هذا؟ إنه لهراء....

عثمان لم يتوقف عند تعليقها بل استمر فـي سـرده دون التركيز لما قالته له مقاطعة :

- كتب الجنرال بيانات بأسماء الجنود وقياسات مدونـة عنهم، لحجم سواعدهم.... أقدامهم.... وجماجمهم لتدل على أصحابها وقلائد يلبسونها تسمى قرص الهوية، محفور عليها أسماء لا تذوب وتفنى مع أجسادهم، بل تبقى على الهياكـل شاهدة على أصحابها....

غابت مع كلماته، حلقت، وارتدت، ملقاة على مقعدها.... تغوص في كلمات غاضبة يتفوه بها دون أن يعي وقعها على نفس جميلة، تشعر بجسدها يترضرض من وقع ارتطامه من علٍّ، غام وجهها واكفهر، تسمرت نظراتها على كتـاب داكٍ مقلوب أمامها فوق النضد، مالت برأسها فلامست ذقنهـا أول حافة قميصها، مطبقة شفتيها على مـرارة الحكايـة سـألها مرتعداً :

- ما بك؟!!.... هل قلت ما ضايقك؟

أأكون أخطات معك دون أن أدري؟!!....

- ....

ترفع وجهها الذي تجاذبته غيمات، تحبس دموعهـا بـين طياتها، فبدا وجهه والعالم الذي حولها ليس بعالمها.... عالم لا تعرفه ولا يعرفها، نطقت متمتمة :

- إستمر.... أكمل

- جميلة عليك بإلقاء "أحياء وأموات" التي تقرأنيها وإليك بهذه.

إرتدت بمقعدها رافعة رأسها في دائرة انفعالات عصـفت بها

- لا تقل لي هذه الكلمة مرة أخرى، أحياء وأموات هي ملحمة قلبي وروحي، أعادني "قسطنطين سـيمونوف" إلـي الحياة من رحى الحرب.

عثمان لم يقرأ أحياء وأموات ولكـن جميلـة قرأتهـا.... جميلة لم تقرأ رواية يحملها إليها في ذلك اليـوم، حينهـا رد عليها قائلاً بتأكيد وثقة:

- بل جنرال الجيش الميت.

غامت.... وتاهت.... وحين رأف لحالها المتبدل أمامـه لان لها بصوت خفيض:

- جميلة ما بك؟ إنقلاب حالك في لحظة، بل أقل!!...

قاطعته بصوت تتجاذبه كل مكامن الضعف :-

- عثمان.... ليس هراء كما قلت لك منـذ لحظـات.... أتظن يوم تتحرر أرضنا من خلف السياج.... هل أترك ماجد أخي يرقد وحيداً في برية هناك.... مقبرة فـي بيـروت " مقبرة الشهداء " أقاموها للراقدين هناك تحتهـا .... ولكننـا نعرفه جيداً .... ولن نحتاج لبيانات مكتوبة عنه، عن طول عظامه.... وحجم رأسـه لنعيـده.... نعرفـه دون قـرص الهوية.... مكتوب عليها إسمه وتاريخ استشـهاده.... لـيس

هراء.... في أموات وأحياء.... وجنرال جيش ميت يعيـدهم من منفى طوى أجسادهم وأذاب عظامهم.... ليس هراء.... في أول لقاء لي بأبي بعد أن أودع أخي ثرى بيروت، مددت له يدي مصافحة، وقبل ان أنطق له بكلمة واحدة قال لي :

- وضعنا جسده في معدن لا يتأثر بالزمن لكـى نعيـده يوما....

وكرر كلماته مرة أخرى :

- يوما سنعيده يا جميلة.

ليس هراء ما حدثني به أبي أول ما رأت عيناه عيني، أبي الذي لم يقرأ أحياء وأموات ولا جنرال الجيش الميت الـذي تقول.... ليس هراء حين كان أبي أول من عبر مع خيـوط الفجر الى الضفة الشرقية مسافراً ، لتتلقف كفاه جسـد إبنـه المكفن بعلم الثورة.... كان يريد أن يعرف مرقده لأنه سيعود به يوما إلي أرض لنا في كنعان، عبر أبي أجهزة اللاسـلكي والرادار منع كل من عبر بعده لأجل حمـل جسـد أشـعلوه انتقاما، عظامنا تبقى فيها وتفني فـي تـراب الأرض لـيس هراء....

هل هراء حين يجفل قلب جميلة لحظـة التفكيـر فـي الوقوف على قبر أخيها، وتلوي عائدة، تاركة إياه في أرض تشبه أرضاً في كل مكـان، ولكـن ليسـت الأرض التـى هناك....هل هراء أن يسألها في حمله ونفض تراب وطـين أسود وجذور وبخار وتمضي به.... كيـف لهـا أن تـذهب اليه؟!.... وأنى لها أن تعود بدونه لأرض تنتظره ليذوب في جوفها؟.... أسراب النمل الحائر ودليل قاده إلى موطن يحن إليه في ليالى الشتاء الباردة، يـدور محـرك سـيارتها.... تطالعه... عاد النادل اليه بالنرجيلة وسحب أنفاسـاً وزفـر أنفاساً.... تذوب.... تذوي أمام بوابة تسكن عليهـا لافتـة " قطاع الرأس السوداء "

الفصل الثاني والعشرون

عثمان و....

تجلس قبالته تمعن النظر في هيئته وملامح وجهه دون أن تثير نظراتها اهتمامه.... أحيانا تجده مشرقا و أحياناً معتما ً، يروق لها قميصه الأبيض، تدقق فيه قائلة لنفسها :

عثمان يحاول أن يحسن من هندامه، قميص أبـيض مـن قماش التيل وأزرار كبيرة، يبدو به مكتمل الهيئة.... تقـف نظراتها على أحد كتفيه لزر مثبت فوقه، قام هـو بحياكتـه بطريقة عشوائية لا دراية له بأمور الحياكة، الخيوط متكومة تتسع وتضيق الى آخر الخيط الأبيض المنسدل على كتفه من بقايا خيط مقطوع بأحد أسنانه، تنهدت قائلة لنفسها :

- الأمر لازال معقولاً ، كان من الممكن أن يستخدم خيطا أسود أو أحمر، كل هذا وحديث عثمان لم يتوقف، ولم تتوقف دورة الفحص والتدقيق على هيئته.... حديثـه كلـه نـادرة ورحلة بحثه عنها، في كل مرة على النضد ما بينهما كتـاب أو إثنان، ولكنها اليوم لم تسمعه جيداً حاولت أن ترسم لـه صورة خارج المقهى الجالسة معه فيها.... تذهب هناك حيث بيت يأتي منه إليها.... كيف يقدر هو أن يختلـق الحكايـات ويرسم منها صورا في واقع سحري، وحين يحكي لها عـن شطحاته الجنونية يضحك مزهوا بنفسه، فترد عليه :

- كم تحب و تعشـق القـص و اللصـق مـن هنـا... وهناك...وقدرة غريبة لديك على الجنوح بالخيال فتصنع منه حقيقة... أو من الحقيقة تصنع الخيال.

يحكي لها عن بيته وأولاده وكيف يدير الحياة معهمـا.... وكتبه في الدور الأرضي مغلق عليها.... وكيف نقلها للدور الرابع.... كتب تقبع في كراتين لم تعرف طريقـاً لرفـوف تستلقي عليها، لم تكل قدماه من السير في شارع النبى دانيال يلتقط كل ما تقع عليه عيناه، يقلب ويشـتم عبـق ماضـيها ويعرف أنه الكنز الذى ينتظره ليحمله إلـى بيتـه، يسـابق المسافات يقطع كل الأزمنة و مساحة صغيرة تتسع لجسـده، يتكوم على عتبة يضع رأسه على حافتها.... وبقايا لمفـارش صغيرة تحوط هذه المساحة الضيقة.... وورود صناعية أخذت انحناءة لمزهرية صغيرة منثورة حوله.... زهور متربـة، باهتة، عطشى، لم تمتد يد لتسقيها.... دنياه كتب جالس على بوابتها.... كم تبقى من زمنه، القليل؟!.... أم أقل من القليـل وتلفظه عتبة دار ملئت بالكتب....

****

يستلقي عثمان على الساحة الضيقة أمام عتبة داره تتزاحم خيالاته التي دوما تواعده في ساحة الكتـب مـن المسـاحة

الضيقه، وهو على عهده معها أن يصنع منهـا الحقيقـة.... تأتيه في غفوته خيالات تحمل صورة جميلة تقـف أمامـه تتحول عنه، تجوب في مكانه تنظر كراتينه المكدسة بكتـب ترتفع من حد الأرض لأخر حدود السقف.... يرسم حـواراً يدور بينه وبينها، تساؤلاتها وفضولها أمام رجل قلب كيانه ، حيث جاءت إليه خلجات منتحرة من عمر الزمان الذى غفى غفوته الطويلة وعادت اليه تدق على كل وتـر مـن أوتـار روحه.... قلبه وجدانه....

يفتح ويغمض عينيه في المساحة الضيقة يتحسس مواقـع أقدام جميلة، يفرد راحة يده على مكان دقت عليه بقدميها.... على كتب لمست أغلفتها ورفعتها لتقرأ عناوينها، يعود يمسد على قطعة صوفية لازالت تحتضن جسده، باحثا عن بقايا.... قد تكون تركتها وراءها ورحلت

****

عثمان وعين تنطق بآلامه الدفينـة لإنسـان مسـحوق، وعواطف متأججة تكاد تفتك به.... وعالم يتمناه وحلم لازال غافياً في أساطير الحب العظيمة.... ملامحها رآهـا علـى وجوه النساء القدامى.... هي التي تستطيع أن تدفن في داخله

مكامن الرغبة لتحل محلها حالة الرضا بل الفـرح لـدقائق يراها فيها، فتلمع عيناه على كيانها الرابض علـى الصـمت والغموض، مؤمن أنها تراه عبر كل العصور.... وما علاقة هذه اللحظات أو الدقائق بعمره؟.... ترفـع جميلـة عيناهـا لتستقر على زر متكسر وخيط تكومت أجزاؤه على حوافـه، وطرف خيط يتدلى من على كتفه

****

يختلي راسم بعثمان عبر الأثير ينغلق العالم عليهما

- أين أنت يا عثمان؟.... مدة طويلة لم تزرني ولم أسمع صوتك، أيعقل هذا.... أنت الصديق الوفي تتركنـي هكـذا تتجاذبني الظنون والهواجس بك

- ما أخبارك يا راسم

- لو كانت أخباري تهمك كنت سألت ولو عـن طريـق الهاتف.

يباغته بسؤال لا يتوقعه راسم

- كيف حال جميلة؟.... وما أخبارها؟....

- أنت يا عثمان تسأل عني لتسأل عن أخبارها، كم مـن المرات قلت لك اترك هذه الأمور، بالأحرى دعك منها ومن

السؤال عنها، هي لا تستحق منك هذا الاهتمام، وإجهاد نفسك في المراوغة لأجل الوصول لأي خبر عنها، ام لا تكف عن طريقتك هذه؟!.... العالم يتغير من حولنا وأنت لازلت تقـف في مكانك....

تقطعت أنفاس عثمان وسيول من العرق تغطي مسـاحات وجهه المتغضن، يلتقط اللحظات ليرد عليه :

- ما الذي حدث؟ أخبرني....

نبرات صوته تعلو، يريد أن يعبر بـه القـارات البعيـدة ليسمعه راسم

- لا شيء يستحق الذكر، نواياها ليست صافية، بعث ا لها "صائب" الذى أخذ منها نقوداً كثيرة للمراجعة اللغويـة، وحين إستردتها منه تبين لها أنه لم يصلح منها شـيئا، هـي تستحق ما جرى لها، وآخر كتب لها بعضا من نفحاته التـي عبر من خلالها عن انبهاره بروايتها.... بكلمات كلاسيكية لا معنى لها

يجف ريق عثمان يتحشرج صوته :

- ومن يكون هذا الآخر؟....

- صائب وأيضا الشيخ عاطف الذي كتب لها رؤيته في مجموعتها القصصية، عثمان إسمعنى جيداً، هناك أديبـات أحق منها في بأخذ إهتماتك.... إذا كانت جميلة تكتب فليست آخرهن.... وهى الغريبة عن بلادنا، أتت من بلاد بعيدة، أمـا أخواتنا الأخريات فيجب الإلتفات لأعمالهن، وتخرج من ذلك المنفى الذى أنت فيه وتأتى الندوات وتكتب لهـن دراسـاتك المثيرة وإبداعات لم يسمعوها من أديب يماثلك.

أسدل عثمان أهدابه وتمنى أن يلقى بالهاتف في مجـرى النهر ليتخلص من هذا الصوت وأصوات أخرى تطـن فـي أذنيه.... وصوت راسم ينادى في الهاتف وعثمـان يتركـه ويمضي، لا يعرف أهو حـزين لأجـل جميلـة أم لأجـل نفسه.... وعتبات طريق أمامه لا يرى لها نهاية .

الفصل الثالث والعشرون

لاجـئــــــة

بدأت جميلة تسلك درب الآلام وبـين أحيـاء وأمـوات، يحملها إليها عثمان تخايله عناوينها وفخامة أغلفتها، يعود الى بيته يحلم بها، أنها تحوطه في مكانه من قاع كرتونة أغلـق عليها وتراكمت فوقها كراتين الكتب.... ورحلة البحث عنها من جديد، ويقينه أنه وضعها في زواية ما

- أين تكون الآن هذه الرواية؟!....

وحين يفتح عينيه يتيقن أنها مازالت هناك تعتلى أرفـف مكتبة راسم، ولكن كيف السبيل للحصول عليها.... يتـذكر " الأم " لمكسيم غوركى، حمداً أنها موجودة لديه... هدأت أنفاسه حين تذكر أنه أفرد لها كرتونة تضم جميـع أعمـال غوركى.... وتظل رواية "الأم" تلح عليه لأن جميلة طلبـت منه البحث عنها في شارع النبى دانيال....

- هي عندي.... كم أود أن أشكر تلك الأم لأنها أعفتني من رحلة البحث هذه....

يسند رأسه للجدار يتأمل قدميه المتعبتين من عناء رحلتـه الطويلة.... وصناديق تتآكل مكدسة من حولـه.... وفكـرة تعذبه في نقلها من الدور الأرضـي للرابـع.... يتنهـد.... يغمض عينيه مستسلماً للعتمة

- **إلي أين أنت ماض يا عثمان؟!....**

يتعثر في إجابة.... يراوده يأس ممزوج بأمـل فيستسـلم لحالته هذه إلي أن يشق نور الفجر أهدابه، يمد يـده للكتـاب الصامت بجوراه....

- هذه الأم.... آه.... ما هذه القسمات الحادة.... النظرة الفزعة.... أنفاس محتبسة علام تبحـث جميلـة؟!!.... كـم أخاف أن تطلب منى "أحياء وأموات"...." درب الآلام"

قلبي يحدثني أنها تقرأ أفكاري قبل أن تمـر بخـاطري، أحسبها القادرة على افتضاح أموري التـي أحـرص علـى مداراتها لأعيش في هدوء...من أين أتت تلك الجميلة؟ وماذا تريد؟!!.... أخاف حين أقابلها أن تعرف بنواياى وخطط أنام ليلي أدبرها.... وأمنيات ألاحقها في الحصـول علـى تلـك

الكتب الفاخرة.... "قسطنطين سيمونوف" الجميع يغطون في نومهم، الجميع نسوا أبطال الحـرب والسـلام.... والـدون الهادىء.... أنا لازلت أذكرهم.... وأعيش أيـام حـروبهم وسلامهم، ولكن جميلة هل لهـا أن تسـطو علـى أمنيـاتى وأحلامى؟!.... لا.... يقظ أنا ، بل متنبه لها....

وما لبث أن استسلم لضعفه أمام غد قادم إليه سيلتقي بها.

****

يوم ألقي لها بكتاب على النضد، وجه امرأة تهيم بملامحها عبر التلال والأحراش.... ثقبت عينيها كلمة " لاجئة" ينفتل يعدل من قامته على المقعد الخشبي متأملاً للفضاء البعيـد، يستجمع أفكاره التى سيضعها أمامها :

- إقرأيه حتما ستجدين فيه قضيتك التى تبحثين عنها دوما
- أين كنت بالأمس؟
- عند صديقي راسم
- عم تحدثتما؟
- حاول أن يمحو أثراً من سوء فهم بيني وبينه، قال لي :

- نحن أبناء بلد واحد يا عثمان وجميلـة ليسـت مـن بلادنا.... اترك أمرها قليلاً، وانتبه لحياتك الأدبية التي بدأت في هجرانها

لمعت عين جميلة والتصق فكاها فـي فمهـا.... طنـت أذناها.... إحتدمت حراب ونبال وسـيوف فـي عينيهـا.... غاصت بدموعها التي أغرقتها لتلقيها على فتحة حنجرة جافة وقلب يتقافز أمامها من حواف سكين مسنونة تقطع منه وتلقي به فى النهر الذي بدا لها بعيداً بطينه وزرعه

****

ومن لاجئة كانت الأم ورحلة البحـث عنهـا " مكسـيم جوركي " تقرأ ما قدمته الأم وكيف تصنع الأبطال.... تقلب صفحاتها الصفراء المهترئة بعينيها، ورائحة عطـن تنخـر أنفها، وحواف ورقة تآكلت من فعل الـزمن بهـا، بعضـها أصابها بلل من الزمان فبهتت كلمات فيهـا، ولكـن جميلـة ماضية فيها بروح جسورة فرحة.... وان هناك غاية ستصل إليها.... تصل إلـي أبطـال يسـطرون تـاريخهم.... الأم ومكانها، وأرض كانت من أجل الأبناء وكيف يأتيهم المـوت حين يدنو منهم وجلاً.... خائفـاً وحيـاة أليمـة لأنـاس

طيبين.... وحرية تطعم الخبز، وتهب الحياة.... وكيف يجب أن تموت حبة قمح وتبعث حية في سنبلة جديدة، والأم التـي هناك تسبح في ماء عين جميلة لا تكف تجدف بكل قطعة من جسدها.... في مشاهد حية لا تموت، والتي نامت وابنها في فراش واحد، لليلة كانت الأخيرة لصيف أخير

وشوشته :

- أنها راضية عنه.... وفي ذمة ا أودعه....

ووسادة تشهد عناق الدمع في ليلة كانت الأخيرة.... هـي تعرف أنها الأخيرة.... تقوده إلى هناك.... ويقودها الآخـر معه روحاً تدفعه... روح أم تصنع الأبطال.... علمها كيف تدق على الهاتف النقال لتسمع صوته لآخر مرة.... ولكن في المرة الأخيرة كان صوته هو دوى القنابـل المتفجـرة مـن صدره على أجساد لآخرين لا يعرفهم.... ولا يعرفونه

وتلك الأم كانت تعرف حين سقطت شبكة الهاتف وسقطت كل الشباك فـي شـبكة واحـدة.... فتـذبل لهـا الحقـول الخضراء.... ويرقد الأفق في العتمة.... وتتعـرى أسـطح المنازل.... أى أم هـذه؟!.... وأى أم التـى قـرأت مـع مكسيم؟!.... يا ليته ينتفض من تحت التراب، ويشاهد ملحمة

تتفتق حكاياتها ولا تقدر أن تجاريها أقلام المبدعين... هـل تعطينى يدك يا غوركى لنمضى معاً وأفـتح لـك البوابـة الحديديه المكهربة والمزروع على أرضها حراب نافرة؟.... هل تعطني يدك لتشتم معـى رائحـة الـدم؟.... فتصـرخ الأرض.... أكون أو لا أكون.... هل لك أن تأتي معي وتدق بيدك لتفتح لك الأم التـي تحجـرت فـى عينيهـا صـورة الشهيد؟!....

هل لك أن تمد يدك لتنتزع كل الحواجز تزيحها عن وجه الحقيقة؟!.... وأنت الذي قلت.. أنك جئت إلى هـذه الحيـاة لتعترض.. من غسل الصحون، إلى خدمة فى محل أحذية.. جمع الخرق.. اصطياد العصافير.. وعينان تكشـفان عـالم الظلم ودنيا الجوع.. وكيف يسمو النضال فى دخيلة الانسان على كل ما هو حيوانى وأنانى.. ويبقى اسمك يا غـوركي.. اسم أنت صاحبه، يوم نطقت.

" غوركى" تعني المر والمرارة..

الفصل الرابع والعشرون

مدينة نعرفها..

أحياء وأموات.... درب الآلام... روسـيا البيضـاء.... قعقعة آلات الحرب ومعارك تفـوق التصـور.... راحـات ممدودة يعصف الوهن بها، أسلاك حالت بين عيون حبيبـة ستشتاق، تفارق، ترحل، وقد يكون الرحيـل دون عـودة، " ماشا" تدق على صدرها برمـوش عينيهـا... فـراق ابنـة وحيدة.... ابنة هناك وحبيب هنا....

وتظل صورة جورباتشوف ذلك الرجل وخريطة رسـمها على جبينه، تدقق فيها كلما ظهر علـى شاشـة التلفـاز.... خريطة لعالم لا نعرفه.... عالم عرفنـا فيـه معنـى التيـه والشتات، روسيا البيضاء وكيف حملت طائراتها بنات الجليد، صاحبات القلوب الدافئة والأجساد الباردة.... يرجع بنا زمن الرقيق، فتاة ثلجية يضمها بهو قصر تدق فيه بأناملها الباكية معزوفتها الحزينة.... وآذان شرقية ترهف السـمع للجديـد القادم إليهم وسط رائحة النفط الآسنة، لترقص أخرى علـى نغمات مسافرة متعثرة من على قمم جبال سيبريا.... تعرفهن

جميلة منذ انفرطت حبات عقد روسية تدحرجت لتلاف الكـرة الأرضية، لا تعرف ميقاتاً لتكف عن دورانها

من البداوة إلى النفط " عبد الرحمن منيف " الآن هنا.... " وهو الآخر له صورة من ملامح شرقية.... منها تأتي رياح معاكسة متمردة.. ملامح تحبها جميلة حين عبرت بها الزمان ورسمت حدود المكان.... مكان لازال من القدم يسكنها، هو يعرفه مثلما هي.... وكلمات قالها أحبتها.... دائما تحوطنـا المدن القديمة، أما الآن فلا نعرف ما الذي أتى إلينا، ولكن لا تكف أيدينا ترسم وتكتب عن مدينة كانت لنا قديمة عرفها هو وعرفتها هي.. وتظل رقصات الفتاة الثلجية مثل نغـم نـاي حين يرجعه الصدى

****

مدن بعيدة نلم حبالها، نشدها إلينا، مدن ضاربة في القدم.. من اليمن إلي معين.. سبأ.. وسلطانة التي حطـت رحالهـا على شط العرب.. بلاد فارس.. وعودة أخرى لقبائل يسمون "الحولة".. تعود سلطانة وطفولة لم تغادرها تغـرق عينيهـا بالدموع، تشكو همها لأمها:

- يقولون أني فارسية، جئت من فارس.. لم يا أماه؟!...

تدمع عين الأم لحـال صـغيرتها، تضـمها بقـوة إلـى صدرها :

- هم لا يعرفون.. ولكنك تعرفين ولن تنسي يا بنيتي.

تكبر سلطانة والسؤال لم يكف يدور عن المدينة البعيدة.. يمن.. هجرات.. قبائل.. لتظل المدينة القديمة هي السـاطعة في سماء قلبها.. شط العرب لا.. فارسية لا.. بل هي مدينتي الضاربة جذورها في قلب جزيرة العرب.

الفصل الخامس والعشرون

المساكين....

أبناء وآباء....

ليزا

لازالت الكتب راقدة على النضد الفاصل بينهمـا، يلفهـا عثمان بورق سميك عليه خطوط حمراء باهتة، يضم شـفتيه للأمام تعتمل الفكرة فيهما.... يعود بهما لحالتهما الطبيعيـة، يحرك أنامله، يسرد لها ويفيض.... تستوقفه :

- هل أحضرت القائمة التى أمليتها عليك؟

يهز لها رأسه بزهو تلمع له عيناه :

- نعم.... إقرئي القائمة وعلمي على الورقة بما جئتك به

تغوص بأناملها إلى قاع حقيبتها تبحث عن ورقة بيضاء.... تجدها.... تشدها، وتقرأ له، ويبدأ هو في فك لفافـة الـورق عن الكتب المحمولة إليها، ينزع الـورق عـن مسـاكين " دستوفيسكي.... ليزا.... آباء وأبنـاء" تورجنيـف " تتنـاغم

كلماته إليها مع حركة يديه في نزع اللفافـة ورص الكتـب أمامها:

- هى مطبوعات قديمة من سلسلة الألف كتاب، انظري إلى" ليزا" يا ليتك تقرئينها.... وهذه "آباء وأبناء" حين تصلين لبيتك إبدأي بها... نعم إبدأى بآباء وأبناء.

مدت يدها تضم هذه المجموعة بين ساعديها، تبدأ تقلـب فيها، تبحث عن شيء ما في أغلفتها المتهالكة، يرجـع هـو بظهره إلى الوراء، يزداد إلتصاقه بالجدار، فاتحاً عينيه عن آخرهما، يستحث نفسه ليزيح بعضاً من قلقه وهمه مـن أن تكتشف شيئاً هو حريص أن يخيفه عنها.... تتقاطر هواجسه حين يسأل نفسه:

- عثمان ما الذى يحدث لو أيقنت وعرفت أنك تبيع لهـا كتباً من بيتك الكرتونه التي تفككت جوانبها وتحللـت مـن الرطوبة والبلل.... وسهر الليل بطوله ألصق على جوانبهـا اللاصق المتين السميك، وأقص قصاصات مربعـة لا أحـد يجيدها مثلي.... لأخفي ثمنا أكتبه بخط يدي

جميلة تقلب الكتب وتقرأ فـي مقـدماتها وفهارسـها.... وتاريخ طباعتها هل هى الطبعة الأولى.... أم الثانية وهـو غارق في هواجسه بعيداً عنها.

- جميلة تعرف عنك كل شيء يا عثمـان.... وتعـرف خطك في كتابة الأرقام والخطين المتوازيين اللذين يحمـلان الرقم الذى أحدده من قيمة الكتاب ولكني أحكمت اللصق.... أحكمت كل شيء.... ولن تكتشف أمري معها.... بعـد مـا عاهدتها أننى لن أبيعها شيئا من مكتبتي.... ولكن قد أهـديها لها عن طيب خاطر، جميلة تقلب في "المسـاكين " يوقـف حركتها في حديثه معها:

- أنا اشتريتهم بالأمس من شارع النبي دانيال الولد طمع عندما وجدنى متمسكاً بهم، فأخذ يعلو بالسعر، ولكني حاولت معه لنتفق على ثمنٍ معقول، وعدت بهـم، وطـوال الليـل ألصق على الصفحات المنفلتة لأحفظ لك تلك المخطوطـات من الأدب العالمى الذي سيصنع منك أديبة حقة

لم تنطق له بكلمة، غرقت في بحر الصمت أمامه، وحين رفعت رأسها من بين الأمواج لتسترد انفاسها، سألته :

- ورق الظهر منزوع عن الكتاب بأكمله من الغلاف

- نعم.... لقد وجدت آثاراً لكوب شاي فآثرت أن أقطع الجزء المتسخ من الغلاف

- أول مرة أراك تطاوع يدك وتقطع غلاف كتاب، أنا لا أحب هذه الطريقة كان لك أن تلصق ورقة سميكة تحجب ما لا تودني أن أراه دون نزع الغلاف

كانت تحدثه وتتكيء على مخارج حروف كلماتها في تؤدة تحمل كل معانى اللوم له.

- أود أن أقدم لك أحسن ما أستطيع أن أقدمه

قلبت في الكتاب الثاني في حركات بطيئـة مشـيرة لـه بإصبعها:

- والكتاب الثاني مقطوع أيضاً كيف؟!!....

- لا تكترثي لهذا، المهم أنك حصلت على ما تريـدين، وهذه معجزة بحد ذاتها

أخذ يلم الكتب وعاد لحركته المعتادة في حواراتهم خلـف الورقة السميكة المقطوعة، يبلع ريقه بصوت مسـموع لهـا ويمسح عرقا تفصد من وجهه:

- جميلة أحسب أنك تشكين في أنني أحضرت لك هـذه الكتب من بيتى، لا، أنا أؤكد لك أننى أخذت شـارع النبـى دانيال طولاً وعرضاً لأجد لك ما تريدين،أتعرفين معنى أن أبيعك من مكتبتى.... لا.... لا أريد أن أتصور هذا أبداً.

بدأ يحرك رقبته يمينا وشمالاً ويخبط راحتيه كأنه ينفض آثار ما تعلق بأنامله من صمغ وورق، صمتت جميلة لكلماته وعادت تهديء من قلقه قائلة له :

- أنا لا أشك في هذا أبداً ، على الرغم من أن بيعك كتباً لي من مكتبتك ليس جرماً كما تصف، خذ الأمور ببسـاطة بعض الشيء وهذا لن يفسد للود قضية

- لا... أرجوك لا تنطقي بهذا الكلام وتبسطين من هـذا الأمر.

بدأت رحلة النظرات الحائمة على الكتـب التـي أمامهـا والمكان وما حولها، وبدأ هو يستعيد يقينه بأنها لـم تكتشـف شيئاً فتسربت لروحه نفحات من سعادة متقطعة ما إن تأتيـه حتى تنفلت منه برجع عنيف فتوقع في نفسه صدمة لا يعرف كيف تأتيه لتذهب عنه، فيبدأ حواره مع نفسه، بحديث يألفـه معها:

- ما الذى جرى يا عثمان، كل ما أعطيته لجميلة قرأته أنت من زمن وأستطيع أن أجده مرة أخرى في هذا الشارع، بل أستطيع شراء ما لم أقرأه بعد.... لم حزنك هذا؟.... أنت لم تخسر شيئاً .... بل كسبت أشياء، امتنانها لك.... والنقود لا بد أن تتوازن أمامها، لتكمل معهـا مشـواراً بدأتـه.... وتمضي أنت، وتمضي هى، وكأن شيئا لم يكن....

****

لمت جميلة ما تبعثر على النضد من أشـيائها.... كتـب ونظارة قراءتها.... تستأذن للإنصراف، دون أن ترفع عينيها لنظر وجهه الذى بدا أكثر امتقاعاً وقف يسلم، مظهراً لهـا وداً واحتراماً.... ومضت حيث الطريق البعيـد.... حيـث هنـاك ومكتبـة لهـا تعتليهـا.... درب الآلام.... رحـى الحرب.... الأنفس الميتة.... أرى الشمس.... تلف مفتاحهـا في فتحة الباب على غرفة تركت فيها نوراً شـاحباً لسـاعة المغيب يترنح في زواياها لينسحب راحلاً .... عـادت إلـى العتمة تنقل خطواتها في حجرتها، تحفظ كيف تمـر فيهـا، ومقعد تخلع منه حذاءها، ملقية بثقلهـا عليـه.... ومشـجب ينتظر أن يحمل لها ما تلقيه إليه من ملابسها.... عين بـدأت

تعتاد العتمة، إلا من نور شاحب يتسرب إليهـا مـن إنـارة الشارع.... لم تفتح مفتاح النور فور دخولها.... تألف العتمة وتحبها.... تدور بعينيها من حولها لتسـقط نظرتهـا علـى مكتبها.... تمد يدها إلى مفتاح النور لينتشر الضـوء علـى وجهها.... يكشف ما حولها.... كتـاب وكتـب.... عشـق للكلمات.... ونار تكتوي بها.... تصلي أناملهـا.... تلقـي بجسمها على سريرها ترفع عينيها على رفوف مكتبة صغيرة تحمل درب الآلام.... رسول الحرية.... أرى الشـمس.... وما كتبه "نودار دومبادز" عن حبيبة خلا وجهها من الدم.... بعينين زرقاوين.... معتمتين تحدقان في البعد تنادي الطريق

- الى أين تجري أيها الطريـق؟ والـى أيـن تقضـي بقريتي؟.. وعزيمة لا تبارح صـدرها.... تمضـي عبـر الطريق قائلة.... سنعود.... سنعود ميممين وجوهنا صـوب الشرق الذهبي.... وعندئـذ سـترتفع الشـمس مـن وراء الجبال.... وتظل الصبية تنادي.... أيها الناس.... إنى أراكم

شدت قامتها المتعبة مادة يدها تسحب اللفافة وتعود تستلقي بها على ظهرها، ترنح عنها ما تبقى من لفافـة ممزقـة.... تتأمل ما حملته اليوم، وقصاصات مربعة ملصـوقة خلـف

الأغلفة في أعلى الزاوية اليمنى.... وخلال خطه الذي تعرفه جيدا... أرقام فوق خطين متوازيين متعرجين.... إنه هو.... والكتب التي حملتها اليوم.... كتبه هـ ـو.... تـ ـزيح الكتـ ـب المتراصة عن بعضها، تفرقها.... تتعثر أناملها بحافة غلاف مقطوعة لازالت حوافها قائمة، عاجزة، مثنيـ ـة فـ ـي التـ ـواء حزين، تقلبه مدققـ ـة النظـ ـر فيـ ـه انهـ ـا روايـ ـة ليـ ـزا.... تورجنيف.... مجموعة الألف كتاب.... تتأمل قـ ـوام ليـ ـزا المرسوم على الغلاف ممسكة بزهرة لازالت متفتحة.... ليزا وتورجنيف ومدن هاجعة دار فيها وحيـ ـداً شـ ـريداً، وأنـ ـاس مازالوا على رهن الحياة ولكنهم تواروا عـ ـن مسـ ـرحها.... ويقين جميلة أنها قرأت ليزا، وتذكرت قلبها الذي انفطر على حبيبها، وأديرة أذابتها على أطراف بلادها البعيدة.... مضت في هدوء وصمت.... عثمان هانت عليه ليزا وقطع غلافـ ـاً يحمل حكايتها دون أن تأخذه شفقة بها وبمن أحبه قلبهـ ـا.... كلاهما مضى وحيداً .... ولم يتركا سوى مقعد قضى عليـ ـه الحبيبان أوقات سعيدة، حال لونه الـ ـى سـ ـواد والتـ ـوى.... ولحظات أتت إلى جميلة تود أن تبوح لنفسها وتشير إليها.... ولكن هل يظل من الخير أن لا نتحدث طـ ـويلاً عنهـ ـا؟!....

وكتب تناثرت حولها تكاد أن تصرخ لهـا بـأعلى صـوت للكلمات فيها.... أنها لم تأت إليها من الشارع الطويل لبيـع الكتب القديمة.... بل من بيته هو.... ضغطت على اللاصق الأبيض تفركه بيدها.... فازدادت الأرقـام المتخفيـة وراءه وضوحا عشر جنيهات على خطين متعرجين.... لم يعرفـا طريق الإستقامة.... هذه هى الخطوط.... وهذه جميلـة.... تسكن حركة يدها عن الكشط بأناملها، لتزيح دمعة ويـرزخ السؤال أمامها: لماذا.... لماذا....؟!!

تمد يدها تضغط على مفتاح النور لسلك متدل بجوارهـا وتعود العتمة تسبح في فضاء غرفتها.... ومصباح يتراقص في ترنيمة حزينة ترتاح نفسها إليها.

الفصل السادس والعشرون

ورقة نقدية

لمعت عين عثمان حين أخرجت جميلة ورقة نقديـة فئـة العشرين جنيهاً ، مدت له يدها بها؟.... في ثوان معـدودات سافر عنها بعيداً على أجنحة تلك الورقة المهترئة مـن يـد ليد.. وآخرها من يدها إلى يده....

اعتلت وجهه ابتسامة.... فرحة.... سـعادة بعـد طـول انتظار.... وموعد تحقق وأصبح واقعاً أمامه، تنبـه لنفسـه وكم هو مأخوذ بما مدت يدها به.... رفع عينيه إليها وأشاح براحة يده يعلن رفضه

- لا فلتؤجلي الدفع، إحتفظي بالنقود معك.

الكلام يصل إليها بتتابع منمق كما تعرفه فـي موسـوعة مجاملاته التى لا ينتهي مدها، يعود ويكرر قائلاً :

- أرجوك ضعي النقود في جيبك

لم تفكر في التراجع ولو لثانية واحدة، فما قرأتـه علـى وجهه لهو كفيل بجعلها تصر على أن يقبض ثمن ما تبقى له من ثمن الكتب.

جاوبته في ثبات :

- أرجوك هذا حساب وحق علي ويجب أن تقبلهـا وإلا ذهبت هذه النقود في مصارف أخرى.

إعترته نشوة لم يستطع أن يكبحها، ويـده التـى بـدأت تتحرك تجاهها نحو الورقة النقدية، حيث التقطها وألقي بهـا في جيب قميصه، استرد أنفاسه وانتظمت دقات قلبـه، فهـو يستعيد بعضاً من ثمن ما قدم إليها من كتب لا تنفك تخايلـه في صحوه ومنامه، بل يقرؤها عبر الفضاء الممتد أمامـه... ناموس الخلود... " نوداروميـادزه".... "صـاحب الجلالـة الانسان".... "نافخ البوق" " توماس هـاردى " الحـب الأول تورجنيف "ثمن الدم" " ايفان " يهز برأسه في زهو لذاكرة لا تخيب معه حين يود أن يفتح ملفاتهـا.... عـادت بظهرهـا للمقعد تنظر البعد الذى أمامها.... وعقارب ساعتها والـزمن الدائر أمامها، وهل ما سيأتيها به ستقرؤه صفحة صفحة.... كلمة كلمة أم أن زمانها سيغافلها ويمضى عنها، ترحل تاركة

كل هذا وراءها لا تدرى لمن؟!.... لتظل تلك الورقة التـي كلما ذكر نفسه بها وذكرها بالمائة جنيه وبأنه سيعيدها اليها، فهو لم يستطع أن يأت لها بكل ما كتبه تشيكوف من مكتبـة راسم، تقطع عليه كلماته قائلة له في حدة وتصميم :

- لا أريد هذه النقود، بل ستأتي لي بتشيكوف.

ردها أقام أمامه حاجز الصمت، يغرس أسـفله ناظريـه، غارقاً في حيرته:

- وراسم وقد وافق وانتهى الأمر.... كان بينـي وبـين حمل تلك الكتب قاب قوسين أو أدنى.... يضم شفتيه محركا رأسه في عجب ودهشة ترى ما الذى جعله يغير رأيه؟!.... تشيكوف كان ملقى على آخر الرف من ناحية اليسـار مـن آخر زاوية في غرفة تستقبل نـور الشـمس مـن الناحيـه القبلية.... أسمع صوته ينادي متململاً بين كلماته المطبقـة عليها مجلدات قديمة ثقيلة من غزو الزمن عليهـا.... ملـت استكانتها، وموات صفحاتها، وأناملي لا تكف تتراقص فـي جيبى فأنسل بها أمدها لأسحب أول كتاب، أجلس منحنياً في آخر الزاوية، أقلب في صفحات تلتصـق بـأطراف أنـاملي معانقة، تودني لو أنطلق بها بعيداً عن سجنها الأبـدي فـي

مكتبة راسم، أرزخ تحت ثقـل نظراتـه المملـوءة بـالغيظ والتأفف لمنظري المتكوم تحت رف يعلوه تشيكوف

يفرد وجهه يرفع حاجبيه مناجيا أفكاره المتدفقة....

- رقيق الملامح هو.... قد تحبه جميلـة حـين تـراه، وتتعلق به....

يرجع بظهره إلى ظهر مقعده يفرك ذقنه براحته.... كأنه الغريق.... يهدهد هواجسه المرتابة :

- لكنه رحل منذ قرن من الزمان.... وجميلـة دومـا تحب الراحلين.... تلهث وراء الأوهام المتسحبة خلف ظلال المغيب.... لا أنسى يوم قالت لي :

أنها تحب إدريس.... وبعده كان يحيى حقي من أنشـودة البساطة إلى البوسطجي.... ومرة تتجاذبها دوائـر الـوعي واللاوعي.... رسومات ناجي العلي.... إبحث يا عثمان في صحف القبس القديمة.... السفير اللبنانية على أرصفة النبي دانيال، كنت قد نسيته منذ زمن.... هي تعود بي الى أزمنـة مضت عني بوقت بعيد.... تلاحقني تحفزني لأجل أن أبحث لها عن "حنظلة" هذا الذى تقول، ومرة تنطق بناجى العلى.... تذكرنى أن معلوماتى فقيرة عنه حين تقول....

- أنت لا تعرفه جيداً هو الذي إستطاع أن يرسم بالعظم البشري.... وبحمض الكبريتيك.... ينشر الحياة على الحبال وفي الهواء الطلق....

كلماتها تدب في كياني ثورة كادحين، مطحونين، مقهورين تهتف قائلة :

- هؤلاء من يدفع الثمن

يعود ثانية من لحظات سلبت كيانه بعيداً عنها.... يعـود ومقاطع وجهه ترتعش يؤكد لنفسـه هـذه المـرة.... هـو تشيكوف.... سيأخذ عقلها وقلبها معاً.... تعتصره موجة ألم تسحق نفسه المعذبة....

- وأنت يا عثمان الجالس أمامها دماً.. ولحماً.. تحيا.. تتكلم.. تقرأ.. تكتب تحمل إليها كلمات الآخرين فترحل بهـم بعيداً عنك.... لتتسع المسافات وسنوات الاغتراب والجفـاء بيننا.. أنا هنا وهي التي دوماً هناك.... واليـوم تشـيكوف الذي رحل وترك لنا ما أنا جاثم لأجله تحت رف أمام عـين راسم مستسلماً لتقريعاته اللاذعة.... تشـيكوف يـا حلـم جميلة.... يرفع عينيه اليها فتقابله بكلماتها :

- أريد مجموعة تشيكوف.

فيرد بنبرة يأس واستسلام :

- لتأخذي نقودك وننتظر

ترد بعصبية :

- لا أريدها.... أريد....

يقاطعها بحركة يده مؤكدا لها أنه لابد ويحضـرها لهـا، فتستكين نفسها بأن تشيكوف لابد وآتٍ اليها.... فتبدأ تغـزل بنور عينيها وخيوط الشمس المعانقة لها ملامـح تشـيكوف، ملامحه الساكنة على وجه كتاب فوق مكتبها.... لابل يجاور وسادتها وصفحة مثنية على آخر قصة وقفـت عنـدها.... وملامحا له لازالت غامضة في مجلدات تضم كل ما كتبـه من " فرحه " حين هتف " ميتا" لأبيه وأمه :

- الآن أصبحت كل روسيا تعرفني.... من قبل لم يكـن أحد غيركم.... وبطة برية لازالت فـي قـاع المحـيط.... والمرأة التى قال عنها " مغفلـة " تشـد بأهـداب فسـتانها، تحمرعينيها وتملؤها بالدمع، ترتعش ذقنهـا دون أن تنـبس بكلمة مع حبات عرق طفرت على أنفها يقول لها :

- سرقتك.... نهبتك

تقول :

- في أماكن أخرى لم يعطوني شيئا.

ومن بلاد من هناك تمزق سياج ليحكم حصار أشد علـى جسد وروح جميلة.... وما أسهل أن تكون قوياً فـي هـذه الدنيا!!!.... ودموع لا يراها العالم بين جدارن تحجب الرؤيا من خلفها... قد يكون الفقد... الوهن.... لوعة وأسـى.... شجن من خلف دموع تشيكوف.... تنتبه للنـادل يمـد يـده بصينية القهوة، يمد يده يتناول فنجانه، تنظره جميلة في مكر محدثة نفسها :

هو لا يعرف قصة " وحشة " ولمن أشكو حزني.... أظنه كتبها له.... لعثمان.... أو عنه.... هل أقـول لـه أم ألـوذ بصمتى.. فما جدوى أن أضاهي حزنه بحزن قصـة كتبهـا تشيكوف... تتنهد وتطلق أنفاسها في بطء شـديد.... أظنـه قرأها ويعرفها من قبلي بزمن.... وهل لأحـد أن يصـغي اليه؟!.... ولو أن صدره انفجر وسالت منه الوحشـة ربمـا أغرقت الدنيا كلها ولا أحد يراهـا.... هـل هـي وحشـة جميلة؟!.... أم وحشة عثمان هـي المختبئـة فـي صـدفة ضئيلة؟!.... قطع عليها مشوارها البعيد ليعيدها قائلاً :

- ما بك اليوم؟!!.... فنجان قهوتك انقطع دخانه وركـد البن في قاعه هل أطلب لك فنجانا آخر؟....

قلبت ساعتها في يدها تنظر عقاربها:

- لا وقت لدى، سيارتي في ورشة التصليح لابـد مـن ذهابي الآن.

- جميلة أرجوك انتظري قليلاً وأصغ الي جيداً

يحدثها بصوت هامس ويده واقعة داخل معطفه ملتقطا بها شيئا ما وفي عينيه لمعة حذر، حيث أخرج لها ورقـة فئـة المائة جنيه

- إليك بهذه أرجوك لا تقاطعينى، حـين أحضـر لـك تشيكوف سآخذ منك ثمن كتبه ولكن....

مد يده لها بإصرار عازماً أمره

- رجاء

إكفهر وجه جميلة ووجه لتشيكوف يزداد ابتعـاداً عنهـا وقسماته بدت بعيدة يلفها ضباب المساء، وتعاسة تسكن عين عثمان لفشله في أن يقدم لها ما يفرح قلبها....

سيارتها ودخانها المتقاطر بالسواد.... ثقوب صدئة تحيط بصفيحها.... تصلحها، تعـدل مـن حالهـا بـثمن كلمـات تشيكوف.. ورقة لم تحب أن تراها.... ورقة حجبت عنهـا وجه صاحب كلمات لازالت غائبة ساكنة في صـمتها علـى رف من رفوف مكتبة راسم.. تزفر جميلة بأنفاسها، تطلقهـا بعيداً .... قد تأتيها بالبعيد المسافر عنها هناك....

الفصل السابع والعشرون

قمر شاحب

لم تعتد جميلة على نبرة الحزن في صوت راسم، ولم تفهم حالته هذه إلا بعد أن أفصح لها عن ضيقه من أعمال الصيانة والدهان في بيته.... وأن عملية الترميم والاصلاح هذه وطأتها ثقيلة عليه، فكل شيىء في بيته يصرخ في وجهه لوقف زحف الكتب التى تكاد تغرقهم جميعاً .... تحتل أماكن لهم.... قد تحتوي حاجياتهم، مقتنياتهم خصوصياتهم.... وهنا يظهر لهم عثمان.... يتردد يوميا على بيت دون الباب والشباك.... ألواح خشبية تحمل مواد الطلاء.... ترفع الرفوف لعودة ثانية.... ولكن من هم أصحاب العودة الأخيرة؟.... هل أجاد راسم حسبته.... لم يكف يحملها ويرصها على الرفوف وفي كل مساحة فارغة قد تتسع لها.... منها ما أخذ أيامه وسنين عمره قراءة، ومنها من ينتظر عسى وعسى.... ولكن هو الزمن بسكينه الحادة تقطع

علينا كل طرقات قد تـؤدي بنـا إلـى الوصـول.... أم أن مسافاتها الطويلة تبتلعنا وتدمي أقدامنا.... وتئد أحلامنـا.... تسترق عين عثمان كل عناوين الكتب، قبل أن تحملها يـداه عادياً حيث بيته الغارق في كراتين متراصة.... عين عثمان تقرأ الأسى على وجه راسم.... أسى يفيض بعد احتباسه في صدره سنوات طويلة.... وعـين عثمـان لا تتوقـف عـن التسحب على الحوائط والأرائك الخشبية، تحـت الأسـرة ، يلتقط بها كل ما يمكن أن يساوم عليه ويقال من شأنه، يجلس القرفصاء أمام مجلات مرصوصة بنظام وعناية، تتدلى مـن على جانبيه أهداب معطفه الصوفي، تظهر من أحد جيوبـه حواف أكياس بلاستيكيه يدسها في جيوب عميقة لا يعـرف أحد مداها، يمد يده لأول مجلة، يضم شفتيه، يعقـد ملامـح وجهه بطريقة مصطنعة يجيد حبكها

- أخبار الأدب!! ما هذا؟!! وكل هذا يا رجل،!!!.... أنا سآخذ تلك الأعداد إلى بيتى في الأمان.

يدور راسم في المكان حائراً يود أن يصرخ مـن شـدة لوعته وأساه، ليعاوده الآخر يكمل يلضم أطراف خيوطه

- حين تطلبهم ستجدهم ببابك على الفور

بدأ ينسل بالكيس البلاستيكي خارج جيبه بـبطء مشـوب بالحذر:

- إذن أنت جاهز على كل حال بما تحمله

- لم القلق؟.... هذه أجولة سأحمل فيها مخلفات مكتبتك، أنا أعرف أننى سأحل لك مشكلة كبيرة أنت واقع فيها، لـدى مكان يتسع لكل هذه الزيادات، الدور الأرضى ومنـه إلـى الرابع، الطليعـة الأدبيـة، الهـلال.... التـراث الشـعبي العراقي.... هذا تكدس رهيب.

يلقي راسم بجسده على الأريكة المقابلة لعثمان الواقـف أمامه قابضا على أجولة.... يطالع النافذة.... قمـر مدينتـه شاحب هذه الليلة، تعصف بصدره تنهيدة من أعمـاق قلبـه المتفتت على ما جمعه في سنوات عمره الطويلة.... يجاهد ضعفه.... إستسلامه لصوت عثمان الراغب في لملمة كـل ورقه من بيت راسم منتشياً بزهوة النصر.... حين بدأ يلقي بأخبار الأدب فى قاع الجوال حتى جاوز العـدد المائـة.... ليتوقف ثانية ملتفتا لراسم

- هذه مجلة الأقلام.... عراقية....

عاد يضم شفتيه ويتمادى في رسم الحيرة لمشـكلة واقـع فيها راسم.. وعينه لا تفارق وجه صديقه ليعرف كيف يدق على حبات الفلفل، يفتتها، يطحنها، يحملهـا رغـم حـرارة ولهيب مذاقها، يمسك الأقلام بين يديه يقلب فـى صـفحاتها قائلاً :

- راسم قاربت أن تتآكل صفحاتها.

يرد بنبرة أسيانة :-

- حتى هذه يا عثمان؟.... اتركها.

- ماذا؟ أترك مئات الأعداد!!.... أيـن المكـان الـذي سيتسع لكل هذا؟!!....

كان يعلو بنبرات صوته ، يصطنع الانفعـال والتعـاطف لحال صاحبه وما آل إليه، فترد إبنته.... إبنه.... زوجته :

- حاجياتنا لم يعد لها مكان هنا .... يجب أن تحل هـذه المشكلة في هوجة الصيانة والترميم....

تقترب زوجه منه قائلة في استعطاف لقلبـه لأن يلـين لها :.

- حاجيات إبنتنا أين نذهب بها؟!....

تلمع عين عثمان، يقترب من راسم هامساً:

- قلت لك كل ما سأحمله من هنا على سبيل الأمانة وأي وقت ستطلب مني أي كتاب سأكون جاهزاً به أمام بابك.

لم ينطق راسم بل عاود النظر إلى نافذته وقمـر يـزداد شحوباً في وجهه، فيضفي قتامة على نفسه وروحه، وعثمان يفتح الأجولة على أفواه جوعى متعطشة لكنوز راسم الملقـاه فوق وتحت الأسرة.... وعثمان يلمها على صدره ويلقي بها في قاع الأجولة، تمتليء، فيضم فتحاتها ويربط عليها، تنتظم أنفاسه حين ينفض راحتيه من تراب قد يكون عالقـا بهـا، وراسم يجلس مغتالا من شحوب قمر مدينته، وعثمان يرفـع أحماله يلقيها وراء ظهره عائداً بها شابا فتيـاً تـدب فـي أوصاله طاقات لحمل كيلوات فوق ظهره الذي لم تحنه كنوز كتب من مكتبة راسم

****

رفعت جميلة سماعة الهاتف يطلبها عثمان يحدثها بصوت يسمع الدنيا كلها:

- أخبار الأدب.... الأقـلام.... الطليعـة الأدبيـة.... الكاتب.... والحياةالثقافية التونسية كلها فـي بيتـى الآن يـا جميلة.

ضحكاته تخنق صوته، يتوازن ليعود يكمل لها :

- أقنعته أنها أمانة وسأردها له في أى وقت يشـاء.... ولكن أين ومتى؟!!....

قطعت موجات سعادته المتدفقة قائلة :

- تقول الأقلام؟!!.... هذه مجلة عراقية....

- نعم لدى أكثر من مائة عدد

- أريدها

صمت

توقف صوت أنفاسه فى أذنها وتبعثرت حروف كلمـات كاد ينطق بها.... وحلت مكانها حشرجة صوت لـم تعتـدها جميلة، عادت بمطلبها تعيده على مسمعه

- أريد مجلة الأقلام العراقية يا عثمان

وبصوت خفيض فقد وهجه وحدته

- كما تريدين.

- أين ومتى؟

- كما تحددين.

أغلاق الخط وبدت العراق أمامهـا مغتالـة.... مغتصـبة كلمات لها ملقاة ما بين ضفتي أمان راسم.... وعثمان.... ثم إليها هي....

تذكر كلمات صاحبها البعيد.... الغريب.... " مدينة تبتلع الأشياء كلها حتى أحلام البشـر مـن أقاصـي القـارات " الربيعي، وأين هو الآن من بلاد المنافي؟.... حين تختـرق الأجساد الزاحفة عتمة الضباب كأشباح غامضة تزحف نحو وليمة لا يعلم أحد كنهها، وهل كان يعرف لحظة ما كتب أن وطنه هناك كانت عليه الوليمة.. كأنه الحلم.. قد يأتيه حنـان وطن يقتل جفاف أيامه.... يضمه حتـى الفنـاء... الأقـلام أمامها... تمد يدها وجلة لأول عدد يقابلها، تقلـب صـفحاته تطالعها " شحوب القمر " فرحت لتلك اللحظة حـين وجدتـه على صفحات الأقلام، لم تعد قادرة على أن تبحث عنه وسط الركام.... والمآذن المهدمة.... وأشلاء الجثـث.... نزيـف الدم.... والمدن الزائلة.... والخراب المقيم.... ومن شحوب قمره يحكي عن بيروت المخضبة المقتولة، مادة يدها مشيرة

بالإتهام إلى القتلة كلهم، بأي هوية جاءوا.... وبـأي شـعار تاجروا؟!.... تصيبها تنهيدة.... ترفع عينها لآخـر حـدود جدار حجرتها

- هل كنت تدري يا عبد الرحمن أن كلماتك هـذه هـي بغداد الأن.... الناصرية.... الفلوجة.... وأنت الذي أخـذتك متاهات المنافي وأكلت قلبك وعدت بطعم الصـحارى فـي فمك....

قمر شاحب حوط نافذة راسم ومكتبته بعدما غاض لونـه الشاحب على العراق كلها، هل ندير عقارب ساعاتنا جميعنا ليبدأ زماننا من هناك من علـى آخـر سـعفة مـن نخيـل العراق.... وجميلة حين كانت أمها تعانقها بعينيها تحوطهـا، تضمها لصدرها، تبعد عنها وجه ابنتها تتأملها قائلة لها :

- أجمل ما في وجهك مسحة شحوب تحتله.

ترد جميلة مندهشة :

- لم أسمع أن للشحوب جمال يا أمي!!...

تضمها إليها بحنو شديد :

- صدقيني يا جميلة

وحين حكى الربيعي عن شـحوب قمـر فـي سـماواته وخطاياه وبراءتـه.... وخطواتـه المترنحـة فـي خـوف وشجاعة....

أنت يا عراقي المولد.... لم تكن تدري.... لم تدرك كـل شحنات أفكارك أنك تحمل شحوبا لقمر عراقـي مـن قـديم الأزمنة، وجوها شاحبة في مدينتة بل مدناً قتيلة في عالم فقد الربيع والرجاء.. تجاذبت جميلة وطـن لهـا هنـا، وطنـاً هناك.... وهل تحزن على صديق مضى ولم يعد.... أم على موطن نازف وأغرقت دماؤه كل نفثات الحياة التى قد تشـير بأصابع الاتهام إلى أصحاب القرار.... حـين كانـت هـى الحرب.... حرب تلم فيها الجماجم وتوارى العظـام التـى رحلت دون عودة.... الأقلام حين حملتها.... تصعد درجات بيتها لم يصبها تعب.... أو إحتباس أنفاس في صـدرها.... العراق ستكون في مأمن.... هنا في مكتبتها.... الأقلام فـي يد جميلة، تقرأ في شحوب القمر.... تستعجلها صديقتها :

- ساعة أو ما يزيد وأنت غارسة ناظريـك فـي تلـك الأقلام.

تجيبها هامسة :

- الأقلام.... العراق

هدأت نفسها حين أراحت جسدها على الأريكة والأقـلام تستنيم في أمان على رفوف مكتبتها.... والربيعي عائد ولكن في شحوب القمر...

الفصل الثامن والعشرون

حـنظلـــة

ليل يشق قلب القمر، فيخبو ضوءه.... في ظلمة الكـون، تغتاله أسلاك نافرة، يتبعثر وينكسر قمر المدينة.... يحـوط الكون سياج يلف جسد امرأة من كنعان، لاتهـاب حوافـه المسنونة.... تلتحف الأرض، ثابتة أقدامها عليهـا، تمـزق حوافه حدقة عينيها، تتقاطر دموعهـا، تبلـل شـالاً يلـف رأسها.... ورسومات كنعان على صدرها.... ومـن خلـف السياج لازالت تقف على الأرض وعلـى خصـرها كوفيـة مسيجة، تعقدها وتحكم عقدتها.... كوفية تلم ما تبقـى مـن ثوبها الفضفاض.... تستكين أناملها في سلام تحمـل زهـرة بلون الدم.... ليظل " حنظلة " هو الواقف بجوارها من خلف السياج، ينظر الأفق البعيد.... قد يأتي إليه بقريته "الشـجرة" قد يرد عليه نداءه الشهيد " عبد الرحيم محمود "....

يطالع قمر مدينته المشطور فإذا هي العتمة، عتمة تحجب أشكال المدن وطرقات قد تؤدي إلى قريـة تـدل عليـه....

حنظلة من خلف السياج في رأسه قذائف من نار.... خمسون ألف لوحة ولوحة، مـن السياسـي الشـهير إلـى المثقـف الشهير.... حنظلة قتلته رسوماته.... وماجد قتلتـه كلماتـه على أرض المنافي....

****

من صوت الأمة تقرأ جميلة عن الرئيس ونسـائه، وفـي مربع طلي بالسواد، كتب بخط أبيض " فريـدة " والتقاؤهـا بالرئيس في تونس.... فريدة يعرفها العالم بعد اغتيال رسام الكاريكاتير حين ذكر إسمها في أشهر لوحاته ليتعلق دمه في رقبة الرئيس و.... تلقى جميلة بالجريدة وتلقي بثقل رأسـها على أطراف راحتها شاردة والطريق أمامها يطول وكم مـن محطات تستوقفها، تنزف على أرصفة الطرقات، تستصـرخ ذاتها، تستنهضها أنها لازالت تذكر ولن تنسى حنظلة، وحين يسألونه عنه يقول لهم :

- حنظلة ذلك الأيقونة التي تحفظ روحي وتحفظني مـن الإنزلاق....

ليظل حنظلة طفلاً لم تغادره طفولته، ظل واقفـا يـدير ظهره للعالم، شابكا راحتيه وراء ظهره، وهل ينسى الجميـع

يوم فك اشتباكهما ورفع صورة لفارس قتلته كلماته، صـورة ماجد الذى قال " لا " ومن عينيه دفقت دمعة تقـول " رومـا ".... حنظلة يا أيقونة الروح حين رسمت ملامـح الغريبـة على حوائط مرسمك في المنافي، ونقش لإسمها فـي قلـب كنعان، حينها ساقوها حيث سراديب وعتمة.... صـرخاتها سبقت خطواتها.... قص شعر.... الجلوس في برك آسـنة، تتقاطر جرذان المصارف أمامها.... ترنو لها جذعة.... تلمع لها عيون الظلام.... تمد يدها الواهنة تتحسس بلاطاً تشـقق ينوء بالحفر والبلل.... عبثاً تجد الغريبة مساحة جافة تجلس عليها.... وهل تسعفها أقلام تعيد لها ملامحهـا الذاويـة.... وأين منها حنظلة في دهاليز الصمت المعتمـة؟!!.... أيـن منها شاب نحيل الجسد، أشيب الشعر أدار ظهره للعـالم.... لتظل " لا".... وهو الراحل حيث مخيم عين الحلـوة لازال هناك مزروعا فيه، واقفاً أمامه تلميذ صغير.... هارب مـن غرفته الصغيرة يرسم على الدرج

- ماذا تفعل يا حنظلة؟!....

- هنا أشعر بالعفوية كأني طفل سارح في الخلاء يرسم بعيداً عن ضجيج إخوته

- حنظلة كيف يبدأ التهجين؟

يرد بمرارة وعين شاردة هناك حيث السياج وأسلاك نافرة مزقت حدقة الصبية.

- حين يعترف العـالم بـي.... تـدريجياً .... بالرشـوة، بإرهابي.... إن قبلت المساومة أعطوني أكثر حتى تـتم الصـفقة نهائياً ، ثم يرمونني كقشرة برتقالة، أنا لست من هؤلاء.

- ألا تخاف آفات طفيلية قد تنخر جسدك النحيل في المنافي البعيدة؟ قد أكون الهارب إلى الوراء لأتقـدم خطـوات إلـى الأمام، في جيبي رصاصة في قلب الفساد.... المساومات.... التخاف.... لن أطلقها على أحد.... دماء لوحـاتي غزيـرة ليصرخ الجميع معي بكلمة" لا "

تنهض جميلة.... تقترب من نافذة حجرتهـا يطالعهـا بـائع الجرائـد... تفتـرش الأرض كتـب ومجـلات.... وأوراق.... والرجل جالس على مقعده الخشبي، أخذته غفوة عميقة من عقارب زمن هو سارقها، تفتح عينيها على آخرهما.... وتصميم ثائر فـي داخلها، تسكت ثورتها.... تهدىء نفسها بكلمات....

- هو.. عثمان الذي سيأتي لي بخمسـين ألـف رسـمة ورسمة لناجي العلي.... ويفتش عن طفل يدعى حنظلة......

الفصل التاسع والعشرون

كمال إسماعيل

لو كانت تعرف أنه سيرحل قريبا ، لأعطت عينيها فرصة التدقيق في تفاصيله من قرب وبعد.. أول لقاء عرفته فيه في مؤتمر أدباء الأقاليم في الإسكندرية، مركز الإبداع.. أنـوار تضيىء تتوهج من فرحة التجمع بالإخوة والأخوات، فرحـة الالتفاف حول الكلمة، يومها فتحت خزانتها، أزت في أذنهـا ضلفته، وجديد سترتديه بعد نسيان، غافية أشياؤها في خزانة معتمة، تشد منها سترة زرقاء سماوية، تتخللها نقط بيضـاء لامعة، منثورة عليها.. تتأبط كتبها لتهديها، وكلمـات إهـداء تنتقي أحسنها، فيفرح قلبها.. كان راسم في انتظارها وعثمان يقف على حافة الرصيف، يتابع حركة السيارات، وعلى غفلة من أفكاره وتشتتها، لمحها تدخل البهو المؤدي للقاعة، أسرع يقود خطاه اليها، ينادي :

- جميلة....

وقفت تلتفت، فإذ هو يطالعها مهللا.. باشا.. مرحبا..

- أنا من سيعرفك بأدباء مصر كلهم.. سنوات عمـري معهم، أعرفهم ويعرفونني

وبين لحظة وأخرى استدار من أمامها ينادى باسم كمال..

- تعالي لأعرفك.. هذا كمال

من وسط الجمع المحتشد داخل القاعة وحولها.. من همس وضجيج وحديث من هنا وهناك.. أشار لها.. اقتربت منـه، يقف أمام وجه تندى بسمرة النيل.. فارع القامـة.. حنطتـه تبوح وتحكي، وما بعد قسماته المصرية، كان جواله الأقرب إليه، من البلاستيك اللين.. كبير مستدير فوهته تتسـع عـن قاعها بمرات مضاعفة، وقماش من التيل الأبيض خاطه مـن حوله، أحالته الشمس والترحال الى لـون رمـادى، إنحنـى ليرفعه عن حدود قدميه، يحاول أن يتأبطه، يضم ساعده عليه يضغطه بشدة لينعقد في عقدة واحدة.. نظر إليها كمال، ولـم يتحدث بكلمة واحدة، بل وقف صامتا، متحداً بجواله، أمـا عثمان فلم يداري فرحة بلقائه قائلاً لها :

- هاتي ما معك، اعطه لكمال.. كمـال اسـماعيل هـو الاختيار الأمثل لتوزيع كتبك.

وكلمات راسم وتحذيره لها أن لا تلتفت لعثمان ولا تعيره أدنى اهتمام حين يطلب منها كتباً ليعطيها لآخرين، أحجمت وارتدت إلى الوراء خطوة وعيناها في عيني كمـال الـذي لازال على صمته، وعثمان يمد يده قائلاً :

- هاتى يا جميلة، ماذا تنتظرين، إنه كمال اسـماعيل، ألا تعرفينه، أنا سأشرح لك بعد ذلك.

ما بين جفوتها وبين كلمات عثمان إقترب إسماعيل خطوة منها قائلا:

- هات ما لديك، وأنا سأدق على كل باب مـن كتـاب ومفكرين ومهتمين وستصل كتبك لا تخافي سيدتي

وفي ثوان أنزل ما كان ملتصقا به ليفتح على تلك الفوهة العميقة السحيقة وأخرج لها كتباً متنوعة

- هاك كل هذا، وأنا لو أعطيتنى سأوصلها لكل هؤلاء

مدت يدها تطالع أول كتاب غلافه أسود والكتابة انجليزية " لن ننسى..لن نفرط" تقلب فى صـفحاته السـوداء لتحفـر صورا في عينيها لن تموت .. وجه طفل يكشف عن أسنانه.. يصرخ من قلب الحصار ثورة.. وساعد المجند يضغط على صدره ليلف على ساعده الحامل لنعله يضرب به يصـرخ..

يصيح.. وآخر تحاصره قوة من رجال الجيش، فتبرق عيناه بالذعر.. فقلبه الصغير لازال يتنفس البراءة.. رائحة الدم لم يعرفها بعد.. ولا دق الهراوات علـى المفاصـل.. تمـزق صرخاته فضاء قلبه الصغير.. لم يعرف سواها ولم تمهلـه الأيام ليعرف أكثر.. وصورة لوجـه العـذراء متناثرعليـه طلقات الرصاص.. ولم تسقط يداها بعد.. تنظر كيف يـذبح الانسان!!.... وكيف يعلن عن يوم فنائه وسقوطه.. " حرية التنظيم والأحزاب في مصر "،"صهيل المحارم "،" أبو الهول يبكي ".. دار الصمت بينهما، وأدارت هى يدها تفتح حقيبتها تعطيه قلادة من جبل النار.. ألقى بهما في جوالـه المسـافر من تحت ذراعه إلي المنيا.. منصورة.. بحيرة.. سـوهاج.. غاب عنها كمال اسماعيل.. وغابت هى في سماء الكلمـات والبحث فيها..

****

باقتراب موعد التسجيل التلفزيوني واستعدادها للسفر إلى القاهرة.. تجهز ملابسها وما يخص زينتها، خرجت لمحطـة سيدي جابر بهية.. مشرقة.. تلتفت الأنظار اليهـا، مشـغولة هى لساعة الوصول والدخول لمبنى التلفزيـون "ماسـبيرو"،

تقف على رصيف رقم ثلاثة وسط ملاحقات العيـون لهـا، تنظر فضاء القضبان، وقطار آت.. وما هى إلا ثوان حتـى لمحت وجهاً من سمرة النيل تعرفه.. ولازالت تذكره.. انـه كمال اسماعيل.. شقت طريقها اليه من بين الأجساد المتناثرة على الرصيف.. تخاف أن تنفلت منها الخطوة فيتوه وسـط الزحام.. وملاحقة العيون تترصد حركتها.. تتبع سيدة تسرع تتعجل لحظة تودها.. لتقف أمام كمال اسماعيل.. تناديه..

- أستاذ كمال

يرنو إليها بعين الطفولة البريئة المغلفة بالحياء

- أين أنت؟!.... غيبة طويلة، لم لا تأتي لنـدوتنا عنـد راسم؟!.... أرجوك أن تأتي يا أستاذ كمال.

تفجرت من وجهه حمرة خجـل لمعـت علـى وجهـه فأضاءته.. وهو يحدث من باغتته بالنداء

- قدمي يا سيدتي تؤلمني.. تعيقنى.. بيت راسـم هـو الأقرب لي لظروفي هذه سأحاول الذهاب إليه في باكوس.

صفير القطار وضجيجه قطع الطريـق عليهـا، وكمـال بجواله وحذاء من قماش التيل يلف قدميه.. تغادر.. ترحل.. ويغيب عنها وحلم لزيارة بيت راسم يعود اليـه بعـد غيبـة

طويلة.. يوم دق باب راسم تبين خبطاته التى يعرفها، ومـن لحظة دخوله بدأ يدور بعينيه على أرفف مكتبته ليسأل :

- أين كتب جميلة؟.. أعطني كل ما كتبته لن أوزع منها هذه المرة، بل سأقرؤها كلها يا راسم.. سأريح جسدى وأقرأ لجميلة فقط

يحكي لها راسم عن زيارة كمال اسماعيل له وعن عـزة نفسه وإبائه.. يرفض الطعام.. الكساء.. كل ما يبغيه كلمات.. ثقافة.. حياة.. تضحك.. وتذكر لراسم لقاءها به على رصيف المحطة وأنها السبب في عودته لراسم بعد انقطـاع، يطلـب كتب جميلة لا ليوزعها بل ليقرأها....

قال السعداوي الكافوري قبل أن يقدم ندوتها في معـرض الكتاب :

- كمال إسماعيل مات.

يحكي لهم وهو يقلب في صفحات مجلة الأدب، لا يرفـع رأسه عن النظر فيها، يهز رأسه متأسيا :

- أنا سأكتب عن كمال اسماعيل.

شخص راسم.. صمتت جميلة.. مال برأسه يهمس لها :

- لأول مرة يطلب مني رغيف خبز فلاحي.. ويموت.. هل عرف مذاقه؟!.. أم نسيه كما نسى كل ماديات الحيـاة؟.. هل لحق بكلماتك يا جميلة وقرأها أم غابـت عنـه وغـاب عنها؟!....

رفع راسم راحة يده ممسكاً جبينه قائلاً :

- وترك لي كتباً غلفها وربط عليهـا، كـان يـود أن يوصلها إلى شقيقتك صاحبة جداول دماء.. وخيوط فجر..

ردت جميلة بنبرة مفعمة بالدهشة :

- إلى غزة!....

تمتمت هامسة :

- لم يكن يدرك بعد المسافة ما بين هنا.. وهناك..

طوقتهم سحابة حزن.. وصوت السعداوي يتردد في آذانهم

- لقد رحل كمال إسماعيل

رحل بعد عذابات المنافى.. رحل من كلمات الثورة يوم أحبها ونادى بالحرية والاسـتقلال، تبـرأت منـه أسـرته الاقطاعية، ألقت به في مستشفى الصحة النفسية ثلاثين عاما قابع هناك مع من ذهبت عقولهم وبقيت ضمائرهم.. إلـي أن

عثروا عليه فأطلقوه في دنيا يعيشها.. لم يعرف الفراش.. ولا دفء حوائط البيت.. ولا حنين الأبناء.. بـل عـرف كتبـاً وكتاباً.. مسافر.. مسافر إلي أن قطع فضاء كوكبنا ليحلق في مدارات أخرى.. يظل كمال اسماعيل معنى أكبر من معـان لازلنا نجهلها..

الفصل الثلاثون

قمر بوبا

في الندوة كانت القصص مستنيمة تحت يد راسم، يرفـع يده عنها حين يشير إلي أحدهم، أو يحيى آخرين ليعود بهـا مرة أخرى فوق الكلمات المكتوبة، تنتظر أن تسـمع اسـماً لصاحب لها، يأتيها ليلقى بها علـى الحاضـرين المنتبهـين الغافلين، الصامتين، المأسورين، ووجه جديد مـن النوبـة، رحاب، لازالت ممسكة بورقتها طى أناملها، لحظات وتطير مسافرة من النوبة تسير إلينا عبر مجرى نهر علـى عـود السيسبان وحكايات تخرج من بوابات الأسطورة العظيمـة " قمر بوبا " أسطورة ترفع عنا ما أنهك قوانا، قـد تعيـد لنـا عذوبة الحياة، وترد لنا معانيها، حين سألتها جميلة عن نفسها قالت لها بثقة محببة إلى نفسها :

- أنا المغردة بالكلمات في الشعر وفي القصة

تهمس لها جميلة :

- لتجمعى إرث النوبة في كلمات، تطلقينها لتسافر تلـف الكون من قمر بوبا. والقاص مصطفى زكي نصـر الـذي إحتار في اسمه حين بلغ الشباب وتبرعمت موهبة القص فيه، وجد اسما يشبه اسمه.. نصر.. عروبة.. هو أو ذاك..

وراسم يطلب له تسمية، وأخرى تنوه عن لقب للشهرة في بحر صمته الهادىء.. قد تتشابه حروف الأسماء، ولكن لكل اسم ولكل حرف إشارة وعلامة.. هو يعرف هـذا؟.. ولـو يفهمون معنى صمته لما اقترحوا عليه وسألوه أن يغير اسمه ويحيرونه معهم.. من مصطفى نصر صاحب رواية "ظمـأ الليالي" في ليالي غربال، يقتـرب مصـطفى مـن أوراقـه المكتوبة بقلم رصاص يستعد أن يفك أسرها.. كلماته شـدت جميلة لرجل يبيع أعضاءه.. يداً.. وساقاً.. وفي نهاية الحكاية يبيع عقله.

ضجت الجلسة لقصته، منهم من راقت له ومـنهم مـنهم أدهشته لرفض كل ما قدمه مصطفى..

كلمات مصطفى زكي التي حملت جميلة علـى أرصـفة السوق القديم.. تقف تنظـر عقـل الرجـل ومـن يكـون مشتريه؟.... تقدمت في نهاية الندوة فاطمة زقزوق ورحـاب

وآخرون يحوطون راسم.. يفتح حقيبته، يقدم لهم الاصدارات الجديدة، تستوقفه رحاب وهى تدقق بنظراتها علـى صـفحة الغلاف :

- هذه الكاتبة أعرفها وقرأت لها!....

وقف يتفرس وجهها، مرخيا سمعه لكلماتها له :

هل أهدتك نسخة قبل ذلك؟!....

لا أعرفها شخصياً ، بل أعرف أعواد ثقاب، ولا أنسـى غلاف تلك الرواية الأسود، وذؤابة من نور شمعة أمام سيدة تتأمل فضاءً معتماً يحيط بها.. وكتب تسكن على الحـزن والإنتظار، ومن لحظتها اشتريته وقرأت تلك الرواية قاطعتها فاطمة بلهفة :-

نعم يا رحاب أعواد ثقاب تباع في محطـة الرمـل وراء بائع الفشار "فشار جوجو" بجواره رجل يفترش الكتب علـى الرصيف.. هناك رأيتها وأنا معي النسخة الأخيرة، إشتريتها منه اليوم.

لمعت عين راسم، وحول نظراته عنهما حيث جميلـة، لا يعرف إن كان يخبرها أم يتركها؟.... وأنى له أن يحتمـل السكوت!... أشار إليها فاقتربت منه قائلاً لها :

جميلة هل تبيعين روايتك في سوق الكتب؟!....

علت وجهها الدهشة، تاهت.. عادت تحـاول أن تجمـع أفكارها وتمعن في فهم ما يدور حولها :

- أى رواية تلك التى تسألني عنها؟!....
- أعواد ثقاب
- أعواد ثقاب!.... لم أطرحها في السوق أبداً ولم أفكر في ذلك.. والأعداد التى في حوزتي تذهب كإهداءات للنقـاد والأدباء والمهتمين- رحاب وفاطمة شاهدتا أعـواد ثقـاب على الرصيف خلف بائع الفشار.

إقتربت منهم أكثر والحيرة تفتك برأسها:

كيف؟!!....

رد راسم منفعلاً :

انتظري يا جميلة.. تريثي

وقفت لا تصدق ما سمعته، هل هي الحقيقة أو ما يشابهها، وما أن إنفض كل منهم إلي طريقه، وقفـت هـي وراسـم وحيدين أمام قصر الثقافة، وانفعال لم يغادر وجه راسم ولكنه

يحاول أن يواري حالته إلي أن يصل إلي الحقيقـة، عاجلتـه جميلة قائلة :

هيا بنا

إلي أين؟!....

إلي محطة الرمل،إلي محل " فشار جوجو"

الآن!!..

الآن يا سيد راسم

وقف عاجزاً أمام إصرارها، وخطوات لهما تزحف نحو الشارع العريض المؤدي لمحطة الرمل، تشقه قضبان حديدية تنزلق عليها عجلات الترام، تحمل رؤوساً وأجسـاداً.. لـم يتحدث اليها.. ولم تتحدث إليه، كل منهما في رأسـه فكـرة تتجاذبه الظنون والهواجس، وهى ماضية تحاول أن تشق لها طريقاً وسط الزحام والباعة الجائلين.. ومـا يتنـاثر أمـام عينيها على الأرصفة.. يباع ويشتري.. محـافظ، حقائـب، مفارش بلاستيكية، مرايا، أمشاط، ألعاب صغيرة تتقافز فـي مكانها من مفاتيح تدور فيها.. تفتش بين كل هذا علها تجـد أعواد ثقاب ضائعة منها على أرصفة الطرقـات، المسـافة الطويلة تقصر وتقترب اللحظة التى تنطق بالحقيقـة.. لـيس

أمامها سوى راسم الذى يسير متعثراً فـي حفـر الطريـق وأرصفة عالية.. واطئة.. تقترب منه قائلة :

- هل تشك في أحد ما؟!....

- فلننتظر، لم يبق إلا خطوات ونعرف

يظهر لهما قلب المحطة، في تقاطع الطرق إشارات مرور حمراء.. خضراء.. صفراء.. توصل هنا وهناك.. تمر ويمر من خلفها مبنى البريد المركزي.. وقصة مصطفى زكي حين أدخل كل أبطالها كابينة رقم " ٤ " ولم يغادروهـا، إبتلعـتهم حكاياتهم وأسرارها.. وما خفى منها.. ورجل يبيـع سـاقاً.. ويداً وعقلاً.. تسرع خطاها من جانـب البريـد المركـزي فلازالت قصة مصطفى تغلف مبنى البريد.. ولازالـت يـد الرجل وساقه وعقله قابعة على أرصفة محطة الرمل.. مـن يشتري؟!.... ومن يبيع؟!.... صوت الفرن يعوق تقـدمها.. وزحام خلف بائع الفشار.. تقف جميلة غارقة فـي حيرتهـا وحبات ذرة محتبسة في وعاء الزيت تختنق به، يختنق بهـا، تتفجر، ليظهر منها ذلك الجسم الأبيض الهش الذى تفرح لـه الأفواه، تقرمشها، تلوكها مع رشات الملح، ليحلو مذاقها وسط تأرجح البرميل المعدني الحامل لحبات الذرة المنتفخة، يلقيها

في صينية كبيرة تستدير له، تغرف منها يد البائع وسط أيـد ممدودة تتناولها منه، جميلة وراسم تغرقهما المحطة وعيـون لهما على كتب هنا وكتب هناك.. يبتعد عنها راسـم، تبتعـد جميلة وعيون لهما مغروسة في رصيف المحطة.. بين أحذية وأقدام.. ورذاذ حبات المطر المتكوم علـى ملامـح وجـوه واجمة.. وعين جميلة.. وعقلها.. يذكر أن ليلة ظهـر فيهـا عبدا تايه عبر شاشة التلفاز ينتظرون كلمـات سـيقولها.. أعواد ثقاب.. رواية مدينة.. غزة وما حولها.. شخوص تحيا هناك.. فرحت وحزنت ورحلت.. مدينة لهم تشـتعل فيهـا أعواد ثقاب.. تعانقت دمعات لها مع حبات مطـر بـاردة لا تعرف من يتلقفها قبل سقوطها.. يعيدها صوت راسم :

- هل وجدت شيئا؟....

ترد بصوت يحمل نبرة اليأس..

- لم أجد شيئا

يتنبه لوقفتهما وحيرتهما بائع الكتب

- هل لكما حاجة أقضيها؟....

ترد جميلة متعثرة بإجابتها :

- أعواد ثقاب

وصوت راسم يلاحق كلماتها:

هل تبيع رواية بإسم أعواد ثقاب؟....

يقترب منهما أكثر، يتنحنح.. ينتفخ صدره، ويعلو بقامته، ليهبط بها مرة أخرى

أنا أعرف أعواد ثقاب، كانوا أربع نسخ وبيعوا

قاطعة الإثنان :

من جاءك بها؟....

- رجل يتردد علينا منذ سنوات طويلة نعرفه جميعنا هنا

عاد راسم يسأل وجميلة تزاحمه بأسئلتها :

هل تصفه لنا؟....

قصير القامة، معطفه يلبسه صيف شتاء.. يأتينـا بكتـب ويذهب بكتب

وما إن أنهى كلامه حتى عاد ينظر إليهما بريبة:

ما الحكاية.. هل أفهم؟!....

يرد راسم بلهجة مفعمة بالصدمة :

لا شيء معذرة، لا وقت لدينا

وقف راسم يتتبع فضاءات المدينة القديمـة يتمـتم مـلء صدره كلمات.. تساؤلات عن مصير كتـب وأوراق حملهـا أناس من بيته.. أدار ظهره وتبعته جميلة، مضيا عبر محطة الرمل وسط الزحام بصمت يطبق على قلبيهمـا.. يبيعـون أعواد ثقابها، والرجل يبيع ساعده.. قدمه.. عقله.. وقمر بوبا يحمل مآسيه، يطيرها، يذيبها في أسطورته.. ليحملها عبـر مجرى نهر من جنوب وشمال، وكابينة رقـم " ٤ " دخـول دون عودة.. راسم وخطوات له بجوار جميلـة.. خطـوات ممزقة تخيطها كلماتهما.. كلمات جميلة.. وشهادة راسم، بأن في البدء كانت الكلمة.

لا تتوقفي يا جميلة.. بل اكتبي ما استطعت من حكايـات من هنا.. أو هناك..

الفصل الحادي والثلاثون

ماجد

في طريقها إلى قلب القاهرة تعبر كل النوافـذ المفتوحـة والمغلقة.. عيدان هائشة على حافة النهر وأخـرى منكفئـة لأحزان الأمس، وقطرات من ندى لـم تسـتطع أن تغسـلها لتصاب عودها لفجر جديد، أشجار نفضت أوراقهـا تسـتقبل الشتاء، ملقية بأحمالها في وجه كل الفصول القادمـة، نقـر الدجاج في الطين ودوران البط على ضفة النهـر، وقطـط نامت في حفر خمشت لها فـي الأرض يـدثرون بعضـهم بعضاً، أسلاك البرق لازالت مشـدودة علـى الحكايـات.. ماضية.. حاضرة.. وأيام قادمة تستعد لحمل أحداثها.. وكأن البيوت تسير أمامها تنتظرها.. تسألها :

- إلى أين تمضين؟!....

تترقرق دمعة حزن.. فرح وشوق تمر بها على الجسور الملتفة على قلبها وعينيها.. ومداخن قرى تلقى ما بجوفها من

سواد في فضاء المدن المارة بها.. وفضاء لمدينتها يطـوف بروحها.. وصبى يقف غارقة قدماه بطين الأرض، يـداعب بأنامله عيدانا شبت لطوله، عين له تمخر الفضـاء المسـافر على جوانب قطار يلتهم المسافات ليصل إلى قلب القـاهرة.. ملابس تعلقت على الحبال بملاقط ممسكة بتلابيبها لئلا تفوح منها رائحة الذكرى.. تحتضن بعينيها كل المشـاهد فحـين عودتها قد تهب نسائم تسابقها تمسحها لتأتي بأخرى.. حـين يجأر القطار يدوى في قلبها الضجيج، لحظة دخوله محطات لا يقف لها، تفزع عيون الناس، تتقـافز نظـراتهم المتعبـة عليه.. من خلفه.. من على جوانبه إلى أن يـذوي صـوته، يغيب في فضاءات تتلهف لقدومه..

رفح الفلسطينية.. رفح المصرية.. وأين هو الآن من تلك المدينة المدينتين؟! هل سيصل إليها ليشهد شهبها الدامعة على ورقات الدهر الغارب عنها؟.. وحديثه معها ليلة الأمس:

- أغلقت الحواجز، ومحاصر أنا بين جهتين بعد انتظار ساعات.

وحين عادت لبيتها ظلت كلماته لها تعذبها.. هـو الآتـي إليها.. محاصر.. ولازال لديه أمل في العبور لقلب القاهرة..

وشهب لها قد يشهد معها سـقوطها.. يسـتبد بهـا القلـق، يستطير، يضج بين ضلوعها، تغادر بيتها إلى مكتب الهاتف، تطلبه.. يرد صوته.. فيهديها حنين الوطن :

- أهلاً جميلة.

لم تنثن حروف كلماته ولا وهنت روحه مـن عـذابات المعابر، قطع الطرق عليه وعلى رفاقـه، كلماتـه المتدفقـة وروحه العالية أعادت إليها السكينة وسط ريح عاصفة كادت أن تدق قلبها، تفوق أمطار ورياح مدينة هي فيها، تعود إلـى حجرتها لتستعد لاستقبال غـد.. لازال وسـط الحصـار.. فلسطينية.. مصرية وكلمات له من (زمن الغياب) .. (فـي سماء حزيران).. و(حكاية الريح الحمراء).. لتسدل جفونهـا على سكينة أهداها لها.. وكيف تلوذ بسوافي الرمال..تداعب أطياف الذكرى البعيدة على رمالها.. وكلمات ماجد تفتـرش سوافي الأرض هناك.. تطفو فوق مساحات ذهنه، تأتيه مـن خلف الأسوار"أساس النظرية الصهيونية،مصادرة..استيطان.. مشانق مؤجلة.. وحز عنق واحد.."

وكيف تشتعل جباليا.. وكيف تصبح "المجدل".."أشكلون ؟!.."

وكيف للسوافي الناعمة المنسابة على فراغات الأرض أن تتصاب؟!..

****

على المقهى الثقافي امتدت الجلسات واللقاءات فـي بلـد واحد يتسع فضاؤه لهـم.. يلتقـون فـي أرض القـاهرة.. يتجمعون.. يتحدثون.. يرتابون.. يتهامسـون.. يصـمتون.. تأخذ مكانها على أحد المقاعد تسترد عافيتها من وطء أفكـار مثقلة بها على طول طريق قطعته لتلتقي زكي القادم من قلب الحصار، غزة.. ومصطفى الأغا الذي يشبهها من حكاية لها من هنا وهناك.. شاعر الكلمات.. وسجينها.. ومطلقها لفضاء حر فسيح.. وكيف يسأل الشهيد " أسامة النجار" لو كان يعلم أن القتيل سينحني حتى يصافح قاتله.. وهل أخبرته السـنبلة أن الذين سيخرجون من الجحور ليمتطـوا ظهـر الخيـول الصاهلة.. وهل أخبرته السنبلة كيف توضأوا بدموع أطفـال الشهيد.. مصطفى وقسمه للشهيد.. بحبات التراب المسـتريح على دمه.. سيعيد ترتيب الفصول كما أراد لتعـود القافلـة، وكلمات مصطفى لها حين حدثها بالأمس :

- سأراك يا جميلة ومعي لك هدية، كوفية مسيجة وعلى أول خيوطها المغزولة وجه لماجد مطبوع عليها.

ومع اقتراب لحظة اللقاء، يظهر لهـا زكـي، فتعرفـه.. تنهض من مقعدها تتجه نحوه قائلة بصوت خجول :

- زكي العيلة..

- جميلة.. أهلا.

- حمداً على سلامتك.

يصافحها بيد، وبأخرى يحمل إقتلاعاً من هناك.. وحبات قهوة مطحونة تحمل نسائم غزة الغائبة.. تجمعهـم طاولـة ومقعدان وحكايات لشرفاء.. جبناء.. وحديث لا ينتهي وكأن هذا الوجه تعرفه منذ سنوات طويلة والتقت به بعد غيـاب.. إلى أن ظهر مصطفي يلف على رقبته كوفية.

- أهلا

- يا مرحباً بجميلة.. قبل كل شيء إليك الهدية.

مدت يدها تتناولها مشرقة الوجه، وبادر هـو بـالجلوس، وما إن استقام على مقعده حتى مالت عليه هامسـة، تمـرر راحتها على وجه ماجد المرسوم بخطوط سـوداء تحوطـه

سنابل قمح تقول له.. " حـي أنـت فـي ضـمير الشـعب والثورة " تنظر إليه، لتعود تطالع وجه مصطفي

- أنت لم تأتِ لي بها.. بل هو ماجـد.. وأنـت حملتهـا أمانة.. هو صاحب الهدية.

صمت مصطفي ونكس رأسه مسدلاً أهدابه، ولم راحتيـه في عناق، ليسود صمت يزيحه سؤال زكي لها :

- إحك لي عن الوالد وعلاقته بماجد؟

شخصت في فضاء المقهى كأنها تسترد كلمات قد تـذبح أنفاسها حين تبعثرها مع الريح الحائمة في فضاء القاهرة.

- حين يحكي البعض ويتوعد.. أنه سيجعل غريمه يبكي بدل الدمع دماً.. أنا من رأيت الدمع يـذرف دمـاً.. وكيـف تحول بياض عينيه إلى بحيرة دماء فاضت مع روح إبنه.

أسدلت أهدابها لا تكاد تنهض بهما، تعيد كلماتها متمتمة :

- أنا من رأيت الدمع يذرف دما.

وما إن رفعت عينيها لوجه زكي لاحت لها مـن خلـف زجاج نظارته غلالة رقراقة من دمعة تخاف أن تتدفق حياء أمامها.. توقفت أمـام دمعـة لـم تغـادره، أدارت وجههـا

لمصطفي وحكايات من قصـائده المنثـورة علـي أرصـفة الغربة.. هل له أن ينسى لون الدم وطعم الجـرح ورائحـة الموت القادم واعترافه أنه يتسول في الغربة كفناً؟.. وعرافة تقرأ طالعه وتقول.. ستعيش طويلاً، لكن ستموت غريبا.. ما كان أمامها إلا أن تغير وجهة الحديث

- هل لنا أن نتجول في المعرض

ينهض زكي قائلا :

- تعالي معنا إلى الجناح الفلسطيني.

بدأ مصطفي يلم ما يخصه من كتب، وجميلة تزيح مقعدها لترافقهما، ما إن وصـلوا عتبـة المـدخل حتـى طالعتهـا الموسوعة الفلسطينية.. فرحت لأنها حصلت عليها وهي أول ما تنظر إليه في صباحاتها، والمفاجأة أنهـا وجـدت أربـع مجموعات أخرى تتبع الموسوعة، مدت يدها ترفـع إحـدها إليها، لتمتد يد زكي تستله من بين يدها يقلب صفحاته سريعا، ليشير إليها على حرف الميم قائلا :

- انظري ماجد في هذه الصفحة..

أشار لها.. وكوفية تحوط رقبتها طبعت عليها صـورته.. وعين لها تلتقط أول كلمات كتبت عنـه.. كاتـب ومناضـل

(١٩٣٦- ١٩٨١) وآخر كلمات.. اغتياله في صبيحة يوم ٩/ ١٠/ ١٩٨١، روما.. نقل جثمانه إلى بيروت ودفن فـي مقابر الشهداء فيها.

أشار لها زكي.. وتشير هي أنه معها.. يحضـرها دومـاً ولم يفارقها.

الفصل الثاني والثلاثون

محطة راسم

حين هدأت النسمات البحرية فاستنامت موجات البحر لها ليعلو صوت جهاز المسجل، تجمعت الصبايا حول النغمـات المتصاعدة إلى آخر حدود اليم، نغمات لا تطرب لها نفـس جميلة، تلم لها جسدها من طرف الأريكـة يـزداد ظهرهـا التصاقاً بالجدار، حاجز خشبي يفصل بينهـا وبـين الشـاليه المجاور، تضيق فتحاته أمام مد نظرتها للبعد، تتسع لمشـاهد تراها لأول مرة.. أنوار جيرانها بريقها كريستالى، تتطـاير مفارشهم الملونة والصبايا يجبن مرحات في الأماكن القريبة منها، كل واحدة منهن تفرغ مـا يثقـل صـدرها فـي أذن صاحبتها، منهن سافرات ومنهن محتشمات، تلـف مناديـل حريرية رؤوسهن بأشكال مختلفة ونغمات صاخبة لأصـوات متزاحمة لم تتوقف، كلمات أغنية تحمل كل أدوات الرفض.. يقول لي " لا.. وأنا أقول.. آه.. ".

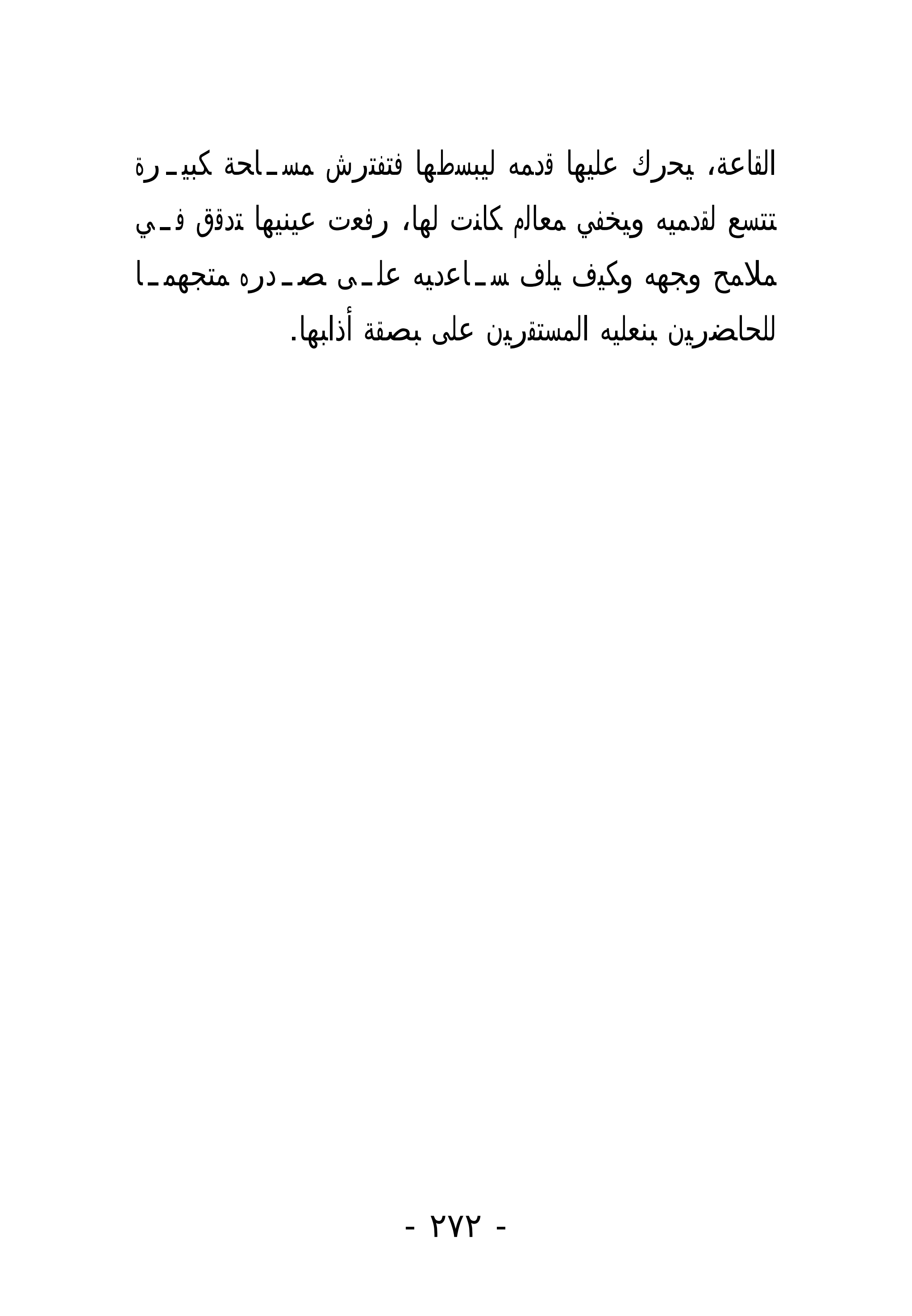
صوت صاحبة الأغنية يثير كل الغرائز الساكنة يوقظها ينتشلها من ركودها إلى الشهوة المتأججة في كل واحـدة مـنهن، يهتـز جسدها كما المغنية، ورقصاتهن خلف الستائر المسدلة لمكان يبتعد ينأى عن العيون، متشحات بالأقمشة، إبتسـاماتهن تحمـل الـدلع والولع، مصفقات في غنج ودلال.. تذكر يوم راسم حـدثها عـن المرأة الجالسة في ركن قصى من السوق القديم، تهمـس لهاتفهـا النقال وهو واقف بين أكوام الكتب يبحث عن كتب وكـُتاب، قـد يدخل الفرح إلى قلبه حين يأفل خط العودة، همسات المرأة لهاتفها النقال تصب في أذنه وشمس تصلي وجهه، ذرات عرق تتوسـله أن يبتعد يتوارى خلف مظلة، شجرة، سحابة.. وقلبه يكاد يتوقـف لأناتها ولوعتها ".. لم أعد أستطيع البعد.. أتمزق لغيابك.. لم أعـد أقدر.."

وراسم تتثائب غرائزه.. تتقلب لوثبتـه.. لتكسـير كـل القيود.. وحين التفت لم يجد سوى امـرأة مغلفـة بالسـواد، وصوت آت من أطراف ردائها أشعل في جسده الحرائـق.. يتلفت مستنجداً من الحريق.. ألقى بالكتـاب.. عـبس لهـا مستديراً نحو خط المترو يلقى بجسده فيه.. قد يرتاح بعـد عناء رحلته الطويلة

الفصل الثالث والثلاثون

حبات العسلية

لم يحملها راسم إليها اليوم، كانت تتخيله وهى تنظره على ناحية الطريق يدس يده في جيبه يناولها حبة العسلية، تنـزع عنها غلافها الشفاف، تلتقمها، تحتـار أيـن تلوكهـا بـين الضروس الخلفيـة أم أسـنانها الأماميـة، تلتصـق بأحـد ضروسها، فتخاف أن تعاكسها فيخلع معها ضرسها، فتصبر عليها، يحدثها عن الندوة وما حدث ويحدث فيهـا، إلـي أن يذوب العسل في فمها، فتنكشف حبة السوداني المدفونة فيها، تلين أسنانها لها تأنس بمذاقها، تأخذ أنفاسها لتجد يده ممدودة إليها بحبة أخرى، سادر في حديثه عن ندوته ما بـين هـذا وذاك، يدق قلبها للحبة الثانية وكيف التعامـل معهـا داخـل فمها.. اليوم جاء في موعده دون حبـات العسـلية حـدثها وحدثته دون مذاق لحبات العسلية وتبدأ الندوة ينعقد مجلسـها يديرها راسم والورق أمامه وأديب بجواره.. تبـدأ القصـة يغيب السيد راسم بعيداً مع أحداثها، يغمض لها عينيه ليسمع بقلبه باكورة عمل لأديب، وجميلة في زاويتها وفـي يـدها مفكرة صغيرة تكتب فيها عن حبات عسلية لم تأت إليها فـي هذا اليوم، تنبهت لحشرجات حنجرة تتضخم لتذوي، تلتفـت نحو مصدر الصوت، أدهشها ما رأته منه، يبصق على بلاط



القاعة، يحرك عليها قدمه ليبسطها فتفترش مساحة كبيرة تتسع لقدميه ويخفي معالم كانت لها، رفعت عينيها تدقق في ملامح وجهه وكيف يلف ساعديه على صدره متجهما للحاضرين بنعليه المستقرين على بصقة أذابها.

الفصل الرابع والثلاثون

عتبات.. وقصور

كان الهواء غربياً يحمل موجات تتقدم نحـوهم بإتجـاه الشاطيء، المجلس حول مائدة عامرة بـأنواع فريـدة مـن الأسماك، تمد يدها للصحاف توزع منها علـى المـدعوين، تسمع تكسير عظام ولقيمات تمر لتمضغ وسـط الكلمـات.. حديقة القصر الملكى الذى كان يوما له محافـل وتـاريخ.. تسمع وقع أقدامها كل صباح حول القصـر تمشـى وسـط أطياف الطيور وترنيمة حزينة تتلقفها أغصان الشجر تهتـز لها وتميل الفروع وقد ثقل حزنهـا.. وسـكان رحلـوا دون عودة.. شبابيك مشرعة، مصابيح نحاسـية مـدلاة تحركهـا الريح فتسير معها في صمت.. خلت السلالم الرخاميـة مـن وقع أقدامهم عليها، ولم تعد تنتظر مـن يعتليهـا أو ينـزل درجاتها، وراعي الزهور يمر وبيده سعف نخلة يمر به على

الأسفلت ليلم ما تساقط من أوراق لا تعرف هل هى خريفيـة أم صيفية؟!.... همس البستاني لها :

- أين الرفيق، تمشين وحيدة يا بنيتى

تود لو ترد، ولكن صوتاً بداخلها يقول :

لست وحيدة فأصوات أهل القصر أسـمعها ضـحكات.. صمت.. دموع.. قهر.. رحيل.. طفولة.. حياة

تعود حاملة الصحاف الفارغة تضعها في الزاوية، تفسـح مكانا لأصناف أخرى من الحلوى، وحديث مـن حولهـا لا يتوقف :

- هذه شاليهات مهجورة، لم يعد يرتادها أصحابها نتمنى شراء أحدها

يقضم ويلوك، يرفع السمكة المشوية ليضعها أمامـه فـي صحفته، مشيراً لهم بيد مضمخة بفتات من لحم الأسماك

- هذا شاليه يتبع القنصلية الروسـية، محـاميهم يـود التخلص منه والاتفاق مع عميل يدفع له، ويوقع هو بالتنازل دون علم الروس، وحين يصل الأمر للقضاء له ألف طريقـة وطريقة ليمكن من وقع له من حيازته

يرد صديقه :

- هل هذه مجازفة؟....

- لا أبداً ، أنا لو في محلك لفعلتها

يهز له الآخر برأسه وسمكة لم يجهز عليها بعد، نطقت جميلة.

- الروس يباعون ويشترون!!!.... بالأمس من كان يجرؤ؟!!.....

تنهدت مسافرة بعينيها وراء الغمام

الفصل الخامس والثلاثون

مصرية.. أمريكية

نقرات يده على باب حجرتها لازالـت صـغيرة رغـم شعيرات بدأت تطوف بوجهه وأسفل ذقنه، وشارب بدأ يطل مستحيا في رسم حوافه وخطوطه أسفل أنفه، ووشوشاته لهـا بين الحين والحين، وأخذها من يدها إلى حجرتهـا، ويلتـف ليغلق الباب ليطمئن أن لا أحد ويستمع لما يقوله :

- اليوم أريد أن أحلق شاربى، أرجـوك يـا أمـي أن توافقي، كل أصحابي يستعملون ألات الحلاقة، وحان الوقـت لأفعل مثلهم.

تجلس على حافة سريرها تتأمل وجهـه وهـو يحـدثها بملامح تنضح بالجدية، يقترب منها أكثر، يشير لها بإصـبعه على وجهه وشاربه، فقد توافق :

- اصبر قليلاً ، لم العجلة؟.. لازال شاربك ناعماً خفيفاً ، لا يظهر منه سوى ظل باهت.. ولو فعلت مـرة ستصـير تحلقه كل يوم أو يومين، وأنت لازلت صغيراً علـى هـذا العمل اليومي، لن يحدث ما يضير لو تأخرت عـن رفاقـك قليلاً ..

ويدور عائداً بفتح الباب، يمضي عنها وكلمات الإنتظار تقوده إلى المرآة يطالع وجهه من الأمام ومن جوانبه، يمد يده يشعل الضوء يعاود النظر والتدقيق في وجهه، ما إن يقترب حتى يبتعد ليمضي في دائرة الترقب والإنتظار..... لا تكف نقرات يده على باب حجرتها، يساررها.. يحكـي لهـا مـا يخصه وما يخص غيره، اليوم أتى اليها وهو يحمل حقيبتـه حاني الظهر، شارد النظرة.. ألقاها وبدأ يفـتش عنهـا فـي مطارح البيت وأخيراً هي أمامه في حجرتها، خلف مكتبها.. تكتب.. تقرأ.. ترتب.. لقد إعتاد ما يراه منها.. وإعتـاد أن يلقي همومه علي عتبة حجرتها.. إلتف بجسده كما إعتادتـه، يغلق الباب ويحكم إغلاقه:

- إسمعيني يا أماه

رفعت عينيها نحوه، وشعور من الـدفء يسـرى إلـى وجدانها.. فلا زال هذا الصغير يدق علي بابها.. ولازال يمد يده إليها يحتاج لنبضات قلبها أن تصل إليه

- هناك مشكلة

تركت قلمها ونحت أوراقها جانباً.. ترفع راحتها تسـند رأسها علي حافتها، تدقق وتركز فيما سيقوله لها :

- يريدون حضورك إلي المدرسة غداً

- هل عدت مرة أخرى للشـجار؟!.... وهباتـك التـي أعرفها لنجدة أحد من أصحابك

- لكن ليس بالصورة التى تظنينها، اليوم وقع على ظلم، وأنت التى سترفعينه عني حين تذهبين إليهم وتتفهمـين مـا حدث، وأعدك أننى سأبتعد عن المشاحنات بعد ذلك..

لم تنطق إلا عيناها بالملامة والعتاب، مع الغد كانت معه تعبر من خلاف بوابة المدرسة المزروعة في أرض الـوادى على أطراف المدينة، تقترب من إسم المدرسة اللامع تحـت وهج الشمس بأحرف إنجليزية، كل شيء جديد فيها، وبعض أجزاء لم يكتمل بناؤها.. جلس بجوارها في قاعة الضـيوف،

أبواب تفتح وتصفق، معلمون ومعلمـات، دخلـت إحـداهن تتبختر في سمنتها.. لكزها ولدها:

- أمي هذه مدرسة العلوم.. هي لطيفة معي

تنبهت أن تنهض من مقعدها وتحييها، تتعرف عليها عـن قرب، وتسمع ما يخص بعضا من أمور إبنها

- صباح الخير

وقفت لها تتلفت وتدقق

- أهلاً

- أحب أن أسأل عن مستوى ابنى في حصة العلوم؟....

التفتت نحوه في جمود وكأنها تقف أمامه لأول مرة :

- معذرة أنا لا أتذكر الأولاد.. في أى فصل أنت؟

- العاشر

- لا أستطيع التذكر معذرة

ومضت عنهما، وأوصد باب من ورائها، واقفة هى وابنها في البهو، حيث أعادها مرأى ما حدث إلى هناك، إلى نجـوم تألقت في سـماء حياتهـا التعليميـة، فأضـاءت روحهـا ووجدانها.... " فؤاد عيد" مدرس اللغة العربية وكيف علمهـا

القاء الزجل.. وترنمت بمخارج ألفاظه في أبوة أحاطها بها.. " سليمة أبو عبسة " رسمت على اللوح خريطة واحدة لوطن واحد من لغة الضاد، وكيف يجوبون الأقطار وعواصمها من خريطة ترسمها في حصة الجغرافيا، ولا تنسى يوم سـألت زميلتها عن اسم عاصمة" الجمهورية العربية المتحدة "

جاوبتها في ثقة :

- جمال عبد الناصر

ضحكت سليمة وضحكنا.. ولكن ظل هذا الاسم هو مغزى لكل ما حدث ويحدث، صار هو العاصمة لكل العواصم حين تبتعد ويغلفها الضباب يكون هو الدليل الذى يدلنا من هنـا.. وهناك.. وكانت تحلم بمدرساتها.. بنجوم تسطع فـي سـماء قلبها وتسأل:

- هل يلبسن ويأكلن كما نحن، وهل ينمن في فراش كمـا نحن

لازالت تذكرهم ويـذكرونها ولكـن مـا الـذي حـدث اليوم؟!.... هي لا تعرفه.. هو يعرفها، يتلقى منهـا علمـا.. وهى لا تعرفه.. ومن هناك.. من شوارع غزة.. ومدارسـها

معروف الرصافى.. إبن سينا.. إبن رشد.. الشهيد مصـطفى حافظ..

مضت في ممرات تأخذها حيث الطريق المفتوح خـارج المدرسة.. التفتت وراءها تمعن في لافتة تبرق تحت وهـج الشمس.. مصرية أمريكية

الفصل السادس والثلاثون

حافة الليل

أضاء لجميلة هاتفها النقال بأرقام لا تنسـاها.... تضـيء من هناك، حيث حدود وطنها المرسومة من مداد الثورة فـي عينيها.... في قلبها.... في دمها

- من؟

- عز الدين

- يا لها من مفاجأة!!....

كاد أن ينطق قلبها.... يا ليتك تصدق يا عـز الـدين أن شريان الحياة يبدأ من هناك.... حيث أنت وهم

- دوما أنت في البال يا جميلة.... أتحدث اليـك اليـوم بالتحديد لما قرأته في جريدة الحياة الثقافية فى ذكرى ماجد في يوم إستشهاده من هذا الشهر

صمتت جميلة.... بدأت تدور بعينيها تفتش في مكانها عن شيء.... بل أشياء ضاعت منها.... الحياة.... ماجد.... عز الدين....

تداركت نفسها قائلة كمن يجاهد على إبقـاء اللحظـة.... لحظة حية.... نبض حياة

- كيف ستصلني هذه الجريدة....؟

- لا تقلقي سأرسلها لك عبر البريد الألكتروني.

ويعود إليها ماجد، وكلمات كتبها، ويعود صوت عز الدين وأصوات كثيرة من حوله في حركة لا تتوقف

- كيف حالكم؟....

- إعتدنا على ما نحن فيه.... أصبح جزءاً من حياتنـا اليومية

- عبد ا ....

وقبل أن تكمل باقي سؤالها جاوبها

هو بخير، لا تقلقي، كنت بالأمس في مخيم جباليا، تحدثت معه، الأوضاع جد صعبة.... ولكن نعيشها....

قاربت الكلمات حافة النهاية وباقات مهداة مـن التمنيـات وأحلام فراشات لم تحط بأجنحتها على ثنايا الأثير، انطفـأت شاشة الهاتف، وسكت صوت عز الدين.... وغرقت هي في صمتها الموحش، حملت حقيبتها، ألقتها على كتفها ومضـت تدق الأرض بقدميها.... ترفع رأسها لإهتزاز أغصان الشجر وشمس تخترقهـا لتنغـرس خيوطهـا فـى الأرض تحـت قدميها.... وشمس يوم لن يموت.... ووجه أخيها الساكن في اطار معلق على حائط بيتها هناك....وكلمات " أحمد دحبور " حين تحدق إلي صورته تكتشف أنـه يبعـد عنـك ثلاثـة وعشرين عاماً؟ وهل تستطيع أن تنتزع هذا اليوم التاسع من أكتوبر فلا يكون الحدث الكبير قد حدث؟.... وهـل يكـون ماجد وصل إلي هذا العمق من الحياة؟

تتقدم جميلة بخطواتها حاملة أوراقها.... اقلامها وقراءات من كتب من هنا حيث حافة الليل.... " أمـين ريـان " .... وصلاته لحتحور والقدر وهو.... وليل ينجلي له مـن قلـب الزمان البعيد لتولد أحلام غده المفقود.... وكلمـات أحمـد دحبور...." حين رأيته أول مرة قبل ستة وثلاثين عاما فـي جبل اللويبده العماني لم يترك في نفسي الأثر الـذى يتركـه

القادة العسكريون والسياسيون، لم يكن محاطـا بـالبريق أو الغموض، كان من البساطة إلي حد تظن معه أنك عثرت به على الطريق وسرعة بديهيته المشـفوعة بسـخريته الذكيـة تضعك أمام رجل ذى مشروع، يقصد أبعد ما يـذهب إليـه الكلام.... يجامل حتى تظنه أخاك الصغير، حتى إذا اختلفت معه أظهر حزماً وعناداً غيرعاديين، وحين يقترح عرضا أو فكرة ما، فلا ينصحك عارفوه بالاعتراض عليهـا، لأنـه سوف يفرضها بإصراره العجيب...."

صوت عز الدين يحتل أذنها ويثقـب فؤادهـا.... ماجـد والحياة.... ماجد ويوميات مقاتل على حافة الليل..

الفصل السابع والثلاثون

أذكرك دوماً

في ليلة لمها النوم، أن الجسد:

- أحان وقت الرحيل؟؟.. هيا انهضي قد تلمنـا عـوالم بعيدة، تتوق إلينا..

تحرق وجنتيها دمعة، تثقل راحتها عن لمها، يرن جـرس الهاتف، تنتبه للزمان والمكان.. تعاند.. تقـاوم.. مـن بـين أوراقها يظهر لها اسمها على ورقة تتوسط كلماتها:

عاشقة أبدية أنت لكل ما هو جميل.

دمعاتها تقطر على جبينها حارقة.. تبكي، هناك ما ضاع وما سيضيع. لم يبق منها إلا نبرات صوت مـذبوح، منـه تعويذته، مرفأ يضمه على شواطئ بعيـدة، أنفاسـها تصـله هناك، ترنو أفق المغيب، علّ وراءه فرحة نائمة!..

من حكايته معها يغزل أسطورته.. همس لها:

- فلتلاق بجدائلك على صـفحة المـاء.. تلمـي شـمس الغروب.. تلوذي بها من العتمة.

وضباب هارب من وضح النهار، تشهد تسربه مـا بـين الأغصان، تشهد رذاذاً ندياً وكلمات تندت على قلبها.

الفصل الثامن والثلاثون

من رحى الحرب

تزحف أمواج البحر أمامها لتنال من الشاطئ، هدير يملأ أذنيها.. تلاطم، تزاحم وبحر ترحل إليه من البعد على سحاب مسافر يصافحه عند كل مغيب.. زحف يزمجر في هـدير لا يتوقف، أرخت نظارتها من على وجهها ونهضـت بعينـين مثقلتين تنظر الجالسة أمامها، مطبقة كتابها علـى راحتيهـا المتشبثة فوق الصفحة لكى لا تتوه عن آخر صفحة من آخر سطر وقفت عنده.. حين تقابلت نظراتها معها.. كانت هـى البعيدة.. أمام الجالسة أمامها من هنا.. نظارتها مغلفة بالغبش تجمع عليها رذاذ الأنفاس الدافئة

- أماه أنت لا تشعرين بنفسك!!....
- ماذا تقصدين؟

- بنطالك الفضفاض هذا وقيمصـك يـذكرني بـامرأة تطوعت للعمل العسكرى.. نظارتك.. وكتبك.. هذه..

- ماذا تقصدين؟ وضحي أكثر....

- تبتلعين الوقت قراءة.. فللقـراءة مواقيـت ونظـام.. أخرجى وتسوقى وإرتدي ملابس الموضة والأزياء الحديثة

تتأفف وتمضي عنها وتعود تكمل كلمات لا تود أن تنهيها

- أمي أنا لا أحب أن أراك هكذا، تشعرينني بأنني أمـام جدتي لأبي.

لم تجاوبها، ولوت حيث رفيقاتها ينتظرنها خارجاً

شخصت لآخر حدود البحر المعانق للأفق، أرخت أناملها عن صفحات تقرأ فيها، تزيح نظارتهـا، ترجـع بجسـدها للوراء، ترمي بثقله على الحشية التى تلقفتهـا، وأنفـاس لا تطاوعها للخروج إلى الفضاء العريض.. كل مـا بـداخلها حبيس إلا كلمات غارقة فيها "أحيـاء وأمـوات " "ورحـى الحرب "، ماشا التى قفزت في غابة جليديـة، ماشـا التـى اخترق الرصاص جبينها ودفنت معهم في مقبـرة جماعيـة وتحت الثلج في تربة متجلدة ألقيت على عجل، وتحتها أجساد عارية.. وشبه عارية، لرجال ونساء برؤوس ملتوية من الألم

ورقاب متخشبة وأيد متجلدة منشورة من الجـانبين، أصـابع ملتوية كانت تخدش الأرض متشبثة بهـا وصـرخة تـدمي الفؤاد.. كيف يقتلن ويتعرضن للتعذيب وتستباح أعراضـهن ويعدمن رمياً بالرصاص وهن حافيات علـى الـثلج؟!.... وتطبق حبال المشانق على أعناق الفتيات الرقيقة ومن رحى الحرب ظهرت لابنتها في عمر جدتها من الزمن السـحيق، وحرب لم يخمد أوارها لازالت تحتدم داخل كيانها.. الإنسان والأرض.. من هنا.. وهناك..

الفصل التاسع والثلاثون

وكانت لهم حديقة

وصل لجميلة رقم وعنوان لاتحاد كـُتاب فلسـطين فـى شارع عدلي بوسط القاهرة، لم تتوان فى محاولة الاتصـال لأجل كتب ترسلها حيث سيقطع الحدود عبد ا تايه من منفذ رفح إلى الأراضي السورية لمؤتمر الروايـة، ومـن قبلهـا تحدثت معه وهو في مخيم جباليا بغزة

- هل تأكد حضورك إلى القاهرة؟....

- التذكرة معي وأوراقي وكل متعلقات السفر، أنا جاهز، ولا أدري ما يجد على الطرقات.. قد نقضى يوما أو أكثـر، لذا بكرت عن موعدي و حاولت أن أسـتلم مـن المطبعـة مجموعتك القصصية "إقتلاع" حدثني الرجل أن هذا سـيكون من الصعب أن يسلمني بعضا منها، هل لك يـا جميلـة أن تؤمني عدداً من النسخ فى مقـر الإتحـاد لأحملهـا إلـى دمشق؟....

- دمشــق!.. حســن حميــد وتعــالي نطيــر أوراق الخريف..أنين القصب..محمد الركوعي، عاشـق الألـوان، وريشة لم تسقط من يده، يرسم معالم وطن.. هى السلامات فلتحملها إليهم يا عبد ا

- بالتأكيد فكلهم أخوة لنا، ونكن لهم كل مشاعر نبيلـة، بعـُد وغربة لا نعرف مداها

- وأنا بدوري سأبعث اك ما طلبته منى

وكان أول إتصال بإتحاد الكـُتاب، تسأل وتطلب منهم أن يسلموا لعبد ا ما طلبه منها، يسألها الرجل :

- عفواً سيدتي هل لى أن أطلب منك بعضا من كتبـك وصوراً شخصية وصورة جواز السفر لنضمك عضوة فـي إتحاد كتابنا

- يشرفني هذا وسأحاول تجهيز مجموعاتي وارسـالها.. من المتحدث عفواً؟..

- أنا سعيد منصور

صمتت جميلة لهذا الاسم، وتداركت تلك اللحظة فـي رد فضولى محبب لديها :

- من عائلة منصور؟ من فيهم بالتحديد؟.... وفـى أي منطقة كنتم تقيمون؟....

- نحن من سكان منطقة الرمال فـي شـارع مدرسـة فلسطين.

وساد سكون، أعقبه كلمات يكمل إجابة لها :

- أنت إبنة أبي ماجد؟!....

تلجمت كلماتها، واسم يحمل الحنين إلى أسـماعها "أبـو ماجد" وكيف تذكره!!. وكيف ذكرني أنا وأيقن أنني ابنتـه التي يحدثها؟!..

- نعم أنا.. وأنت من تكون بالتحديد؟!....

- سعيد ألا تذكرين.. جيران نحـن يـا جميلـة.. دار بسيسو.. أبو زيد.. أبو سالم.. الكباريتي

- أنت سعيد وجدتك آمنة و.... و....

سافرت حيث بيته الذى تلفه أشجار البرتقال المزهرة فـي أيام ربيعية تحمل ثمارها، تجاور أشجار الليمون التى تحملها خضراء لتتلون بلون الشمس، غابة من الأشجار خلـف داره في غزة، كان يحلو لها أن تمضي إليها وتتوه في خضـرتها

وتختبىء بين جذوعها..كان يفصل ما بين بيتهم وبيت صديقة طفولتها رجاء الكباريتي سور واطىء، فتحت فيه فتحة ضيقة تتسع لأجسادهم الصغيرة حين يعبرون إلى حديقتهم، بعيـداً عن دارهم، يلهون في غابتهم التى لم يأخذهم التيه فيها ولكن، هل لى أن أسأله عن أخيه.. سعيد كـان لـه أخٌ لا تنسـاه جميلة أبداً ، لم وجلت حين عرفها سعيد بنفسه أن تسأله عن أخيه وأيام كانت بينهما؟!..

ولكن أخاه كان هو الحكاية هو المعنى الذى لا ينتهى كلما أبحرنا في أعماقه، دوما عاري الجسد، كان يقطع ملابسـه، ينسل خيوطها بين أصابعه يرفض الماء أن يسيل على جسده أو قطعة صابون تمتصها ليفة خشـنة تـدعك جسـده.. ولا مقص عرف أطراف شعره، كان لغزا في طفولتها.. وسـعيد الآن على الهاتف تسمعه ويسمعها.. عرفها وعرفته ولكنها لم تنس أخاه.. وغرفته المبنية من الطوب الأسمنتي على ناحية بعيدة من الغابة.. كيف كانت تدخل من فتحة السور يدها بيد رجاء، وفضول يحركها لترى غرفته، كيف ينـام؟.... ومـا شكل فراشه وشكل غرفته؟..تلك الغرفة تـُذكرها في بيـت الحواديت والحكايات بقصة ليلى والذئب حين احتمت منه في

بيت بعيد..عقلة الاصبع حين لمح نور القنديل فـي الغابـة فتلمس فيه أمانا ودفئا، تحب أن تكتشف أسراراً وخبايا فـى غرفة هذا الكائن الغريب، تتسلق وترفع جسدها لتمسك بحافة شباك غرفته لتجد سريره الحديدي فرشته بقمـاش مخطـط، وخزانة، يجلس على الأرض يقطع من ملابسه وينسلها تنظر إليه تحفر صورة في ذاكرتها وتهمس لرجاء..

- هو لا يشعر بنا هيا

تنفلت راحتها من على حواف شباكه، لتسقط، تشدها يـد صديقتها وتمضى تطير مسرعة لاهثة فزعة، فلقـد رأتـه، ورأت حجرته في جانب من الغابة وخيالات طفولة لا تنتهي، لم اختار حديقة جميلة ليجلس فيها؟!.يوم عادت من مدرستها وجدته جالسا في حوض السقاء للحديقة والمياه مفتوحة وهو يداعب الماء بشرائطه يلفها ثم يفردها.. يبتسم لها غير عابئ بما حوله، يومها صدمت وكادت أن تصرخ، هل لها التقـدم والعدو لداخل دارها؟.. أم الرجوع من حيث أتت؟..تسـمرت في مكانها فقدت قدرتها على التراجـع أو التقـدم غرسـت نظرها فيه لتسرى في جسدها سكينة وطمأنينة حـين ابتسـم

لها..أو أنه يبتسم للفضاء.. لحظتها، نقلت خطوتها حيث أمها الواقفة أمامها..

أفاقت تكمل حديثها مع سعيد :

- سعيد أنتم رحلتم عـن الـدار، تـركتم لنـا حـزن فراقكم..كم كان يحلو لى اللعب في غابة البيـت.. والنظـر لجهاز التلفزيون، فكان أول فيلم من الكرتون أشـاهده فـي بيتكم، أبيض.. أسود.. أول فيلم "كاوبوي " أيضا كـان مـن استراق النظر إلى مجلسكم مشدودين لذلك الجهاز العجيب

لم تشأ أن تسأله لماذا حين رحلوا تركوه هناك؟!.. ترعاه عمته حين لم تقبله مدن.. بقى هناك وقضى هناك...

من هنا تسأل جميلة :

- لم رحلتم؟

- ٦٧ بعد الهزيمة

ظل هذا التاريخ ينقر في ذاكرتها، حين قفل خط الهـاتف تاركا لها كلمات لا تستطيع الفكاك منها.. وشوارع لمدينـة هناك حملت أقدامها.. لبيوت لم تفـتح شـبابيكها ولـم يلـم البستاني أوراقاً خريفية مبعثرة على أرضها.. ظلت تتراكم.. تتكوم.. أمام أعشاب برية تمد فروعها تحبسها في أحـراش

مهجورة لبيوت لم تعد تفتح أبوابها لأصحاب لهـا رحلـوا.. سعيد وأهله وغيرهم.. فتحت سجلات جديدة لأسماء جديـدة أملاك الغائبين بطول السـنين وبطـول الأسـلاك.. وثقـل البوابات.. أوصدت كل طرق العـودة.. لتظـل شـبابيكهم موصدة.. وأبواب تخشبت قوائمها.. وصدأ اف مقابضـها.. لتنزاح تحت فتحاتها ذرات تراب.. تتكـوم مـع فصـول لا تتوقف أن تأتى إلينا في خريف وربيع وشتاء.. لا أحد يـأتي ليقلب صفحة مكتوب عليها أملاك الغائبين.. سـجلات مـن نسيج ما تبقى من المؤامرة.. ودراجة صغيرة مائلة صـوب الجدار تلتقطها يد جميلة وتطير بها.. مرة تنزل مـن فـوق التلال طائرة.. ومرة تنغرس عجلاتها فتميل، تسـقط علـى الرمال.. وسرعة إفاقة طولها لمحاولة ثانية.. دراجة جيران لها.. يوزعون حاجياتهم قبل الرحيل.. قبل أن تدك الحـرب أسطح البيوت، وقبل أن تدق يد المحققيـين بـابهم يطلبـون الزوج والابن ملفات تفتح وأخرى تغلق إلى حين.. ومن يوم ما إعتلت تلك الدراجة تلف شوارع غزة بها، لم يفتح بـابهم لسنوات طويلة.. لا باب ولا شباك.. بـل فتحـت سـجلات أملاك الغائبين.. أيد خبيثة لا تكف تعبث بالصفحات المطوية

على حزن لفراق أصحابها.. أيد تود أن تنزع كل ورقة تدل على صاحبها.. قد يعود يوما.. وحين عودته.. مـن سـيجد على الأرض منا.. ومنهم؟!.... ووجه ذلك الرجل صـاحب العينين الضيقتين ونظاراته الحائمة دون تركيز علـى شـيء محدد.. وكلام الكثيرين عن سر ثرائه.. همـس وأحاديـث متوارية أنه يبيع أملاك الغائبين.. وأصابع تشير إليه أنه..... صدمت حين علمت أن مرضا خبيثاً ينهش بطـن قدمـه.. عضلة ساقه تتآكل.. تذوي.. ليذوي معها.. ساق حملته إلـى بيوت موصدة الشبابيك والأبواب، يفـتح سـجلاتها، ينقـل ملكيتها.. ينهش المرض قدميه.. عظامه.. مفاصـل كانـت تتحرك طوع إرادته، نخر السوس فيها.. وتبقى لها كلمـات ترسم عليها خارطة قد تدلها.. أنت ابنة أبي ماجد.. وحكايـة لم تستطع أن تـُذكر سعيد بها.. رجل يبيع أموال الغـائبين بعد أن مضى بالمدينة صيف ٦٧...

الفصل الأربعون

وليمة مصرية

أمام قصر التذوق وقفت بسيارتها بعدما استقرت بعينيهـا على الدكتور " عناني" يقف على أول درجات القصر يتحدث بهاتفه النقال، وما إن اقتربت منه حتى كان منهياً محادثتـه، عاجلها بابتسامة المصافحة:

- جميلة مرحباً

وما إن نطقت ترد له تحية حتى استوقفها قائلاً :-

- جميلة أعيدي على مسمعى ما قلته لي الآن

اندهشت لمطلبه، ولكنها أعادت عليـه أول مقطـع مـن جملتها

- حمداً

همس لها بصوت خفيض :

- هذه لهجة أعرفها

أخذ يدور بعينيه في فضاء المكان يستحضر مدناً وبلاداً بعيدة.. قريبة.. يلف رقبته قليلاً مسافراً عنها ينطق بوقـع المفاجأة

- أنت....

لم تدع له فرصة النطق، همست له همساً مسموعاً تؤكد على حروف كلمة تنطقها له بسعادة طافت علي وجهها

- فلسطينية يا دكتور.

رد بلهفة :

- أذكري لي اسم مدينتك؟

- غزة..

قاطعها بفيض إبتسامة مسافرة على أطراف مدن هناك.

- هي غزة الأقرب بلهجتها إلي المصريين.

واقترب منها وعلى وجهه علامة حيرة

- ولكنك رغم السنوات الطويلة التى عشتها هنا، يحمـل صوتك رنين الحروف تستشعره أذنى أنـه شـجن.. أهـو البعد!.... أم الحنين؟!....

وما إن استدارت وإياه لاعتلاء درجات القصر، كان ينزل إليهم مستقبلاً سراج النيل مرحباً بجميلة والدكتور، ملتفتـاً نحوها متسائلاً :

- لم لم تنضمي لهيئة الفنون والأداب؟

قاطعه د. عناني قائلاً :

- بل ستصلها بطاقة العضوية دون طلب تقدمه.

وربت على كتف جميلة في طريقهما إلى القاعـة،الكلمات ودفؤها حرك فيها مشاعر تأتيها من هناك البعيدة إلي هنـا، تستوقفه قائلة :

- كم أحب أن تقرأ لي، أليس لنا نصـيب مـن إبـداعك النقدي!!.. أم نستدعي الأقلام البعيدة وأنت الأقرب إلينـا!!.. أين أنت منا يا دكتور...

أغمض عينيه في حركة طفولية رافعاً وجهه للسماء:

- " الأقلام البعيدة " أيضاً هذا تعبير من هناك لم أسمعه هنا يا جميلة!!....

إنتفض قلب جميلة، وكأنه العارف برواية تشق طريقـاً فيها تخطها من كلمات هنا.. وهناك.... ثم فاجأها بطلبه

- أين أعمالك؟.... إعطني إياها.

أعطته بعضا من كتبها، سألها :

- أي من الأعمال تحبين أن أبدأ بها؟

لاذت بصمت تتجاذبه الحيرة

رد قائلاً :

- كلهن أبناؤك.... الليلة سأبدأ في إشعال أول عود ثقاب

****

لحظات وكانت تجلس ضمن من حضروا لمناقشة روايـة سراج النيل " وليمة مصرية "، يجلس على المنصة الـ دكتور عناني.. الناقد شوقى بدر، ليبدأ سجال الكلمات في معركـة عناني، لم يلجأ إلى ورقة مكتوبة تسعفه حين ينقطع بعـض من حبال أفكاره.. شعلة أضاءت النفوس والعقول حين تحدث عن صفحة الأمجاد المطوية، فأصابت كلماته نفس جميلـة.. وسألهم وفي جعبته إجابة:

- عن أروع وأعظم عمل أدبي روائـي فـي التـاريخ العربي والغربي؟....

إعتملت العقول.. سافرت.. وعادت لتتلقف إجابته:

- هي ألف ليلة وليلة

خطر في بالها عثمان حين حمل إليها ليلة في ألف ليلـة، تعتلي النضد تغلفها لفافة، تنظرها مخمنـة، يقطـع صـوته حيرتها:

- هدية عيد ميلادك يا جميلة

تململت في كلمات، تسأله الثمن

- إنها هدية....

ألف ليلة التي يتحدث عنها عناني رائعة الأدب العالمي.. وعثمان حين حملها اليها يرفض أن يقبض الثمن....

****

تبدأ وليمة في كلمات يحكـي عنهـا.. وليمـة فكريـة.. تاريخية.. حكمة.. عظة.. الوافدون علـى القاعـة ينتحـون مقاعد لهم في هدوء،ولكن في لحظات قطع د. عناني كلمات هو سادر فيها، وقف متخلياً عن مقعده مـن وراء المنصـة قائلاً :

- حضر لمجلسنا اللواء " سعد أبو الوفا "

وقف يستقبله، شده من ساعده مصافحاً ومقبلاً لراحـة يده، وجميلة التى لا تعرف أبا الوفا القادم الـيهم وانحنـاءة أستاذ الأدب العربى يلثم يده في إمتنان عظـيم ومحبـة.. " فرقاطة رشيد " ورجال دفعوا ضريبتهم بالدم.. مـن بحـر العلوم، ينهض أبو الوفـا يتحـدث إلـى الحاضـرين عـن هوميروس.... وكيف لقائد يبدأ حديثه عن الإليـاذة ومنايـا ترقص فوق الهامات على شواطىء شاحبة، وشمس طراودة تذيب أفئدة رجالها وموج ينتفض وماء يفور، وحين تسـمع مصر كلها أجمل الكلمات " إسلمى يـا مصـر ".. العـدوان الثلاثي.. بريطانيا.. فرنسا.. إسـرائيل.. ضـرب الجـيش المصرى حين عبر القناة، وضفاف باتت مخـددة بحفـرات القذائف.. جثث ملفوفة تطلب الثأر على ضفة تطوى.. مدن مقاتلة لفحتها نيران المعارك.. مدن ذات حجارة من الخرائب البطلة.. " شاكر حسين الصعيدى ".. لحق به لقب الشهيد في صيف كان له الأخير، شاكر حسين تحييه بريطانيا لبطولـة ولد منها ومات فيها.. كان علـى رأس وليمتنـا المصـرية بمركبه الحامل لمدفع واحد وسط حصار يكاد يطبـق عليـه لعشر مدافع أو أكثر، شد المصرى الأسمر سـرعته، كـان

للموت صارع إن هو صارعه.. هو طريق وحيـد، لنهايـة البطولات العظيمة المحفورة في سجل محفوظ.. حين نزوله الزورق ناداه الأنين، فلبى نداءه ليغوص في سفينة صـنعها وصنعته.. ليذهب معه جلال الدسوقي، أحمد عبـد العزيـز وو.. موت كان لهم في أعماق اليم في رحلة الإنتظار، لرفاق لهم عائدين عبـر كـل الجسـور المنسـوفة، وقسـطنطين سيمونوف " كنت وأبقى صحفيا" وكيف دفعت روسيا برجالها إلي مواقع القتال يكتبون ويدونون ويوثقـون كـل مـا رأوه هناك.. ومن كتبت لهم الحياة، ثبتت علـى أكتـافهم أنـواط ونياشين عسكرية.. لأناس كتبوا لأجيـال تلـتقط حلقـاتهم المستحكمة دون الوقـوع فـي حلقـات الضـياع وفقـدان الذاكرة....

كيف لرجال أن تموت بطولاتهم معهم أو يموت الشـاهد الوحيد عليهم؟!.... تحدث أبو الوفا و ساد القاعـة صـمت غارق في أعماق القناة.. تأتيهم كلماته من واد سحيق..

- جاءت اشارة تقول " لم يعد هناك أحـد " كـل قائـد مركب هو صاحب قرار و لا رجوع لأحد، وحين جاءت إلي الإشارات لنرد عليها بكلمة عـُلم.. سمع.. كـان اللاأحـد..

أبحرنا وأبطأنا في عتمة المصابيح المضاءة، نشق صـفحات مياه الأحمر مع قوافل الصيد التى دمعـت علـى الصـمت المطبق والسكون.. شاكر حسين في قاع القناة وأنا رسمت خريطتى على صفحات البحر الأحمر في عتمة لا تزيحها إلا مصابيح الصيادين.. عبرنا إلي حدود جدة، غافلنا أمواجـاً وغافلتنا أمواج.. لنصل بمركب ورجال وأنا معهم.

وحين وقف مد كلماته، وقف الحضور يلتفون حول أبـي الوفا.. وجميلة الواقفة خلف الدائرة الملتفة من حولـه تفكـر فيما قد تقدمه لهذا البطل الواقف أمامها.. هل تقدم له أعـواد ثقاب؟.. ولكنها لا تحملها.. إجتاحها ضيق، ولكـن الوقـت أمامها أضيق في دائرة بدأت تنفتح أمامها لتقترب منه.. مدت يدها له.. نظر اليها مصافحا بابتسامة،لامسـت راحـة يـده يدها.. يسلم وتسلم.. قد يكون أودع فيها أمانة

الفصل الحادي والأربعون

البطة البرية

جميلة تعد الأيام من قرص ساعتها، وموعد مـع السـيدة ماريت، مع لسان لا ينطق بلغة العرب، تأتي إليها بصـحبة كاتبات من جمعية نسائية تعشق الكلمات، منهن من يتذوقن... ومنهن من يكتبن

تسأل صديقات لها :

- هل يعقل أن يعطي امرؤ موعداً بعد شـهر بـاليوم والساعة؟!!... يندهشن لحديثها متسائلات في دهشة :

- ومتى هذا الموعد؟

- الشهر القادم، اليوم الرابع، الساعة الثانية عشرة.

ومن على قرص ساعتها يأتى إليها الموعد المنتظر، مـع السيدة "ماريت " وما قد تقوله لها أو تسره إليها، ومن قصـر الثقافة كان لقاء نسائي،عرفت كل منهن بنفسها مـن حلقـة

دائرية تاف لتصل إلى جميلة، فتقدم لهن نفسها بلغة انجليزية بسيطة، أنها من هناك...

يلتفتن جميعهن إليها ومن عيونهن تطل بلادتهن " النرويج " لجميلة وقضيتها بينهن وهن معها...وزميلات قدمن للزائرات أشعارهن وقصصهن، وجميلة تقدم روايتها.

تهمس لها السيدة ماريت تحدد معها موعدا...

ورواية لجميلة فى يد السيدة النرويجية من زمن عمـون وآرام في وادٍ سكن على الصمت، ونجوم يشتد لمعانها فـي أفكار جميلة، وما إن تتوهج لها حتى تبتعد عنها، وتتـوارى لتعود لها أخريات في واد تحتشد في سمائه، شهب ونجيمات، تساءلت جميلة :

هل تترجم رواية كتبتها؟!!... وتتبدل حروف الكلمـات و أغوار معانيها الآتية من سراديب شرقية غارقة في العتمـة، قابعة في قوارير الزمن المسحور... تخـرج لآمـاد بعيـدة وتتحول الكلمة إلي كلمة، قد تشبهها أو تدل عليها!!!...

يغيم وجهها، تكتم أنفاساً ، تود لو تطلقها بعيداً ، قد تعـود إليها تهدهد هواجسها، فتهدأ نفسها.... تنظر روايتها تمد يدها

تفتح صفحاتها الأولى تقرأ " بكف جدتى تدور الرحى علـى حبات قمح تناثرت على حوافها القشور "

تصغى لكلمات كتبتها وكيف ستكتب بلغة الغـرب؟!!!... هل ستجد من يعرف بحبات قمحنا... ورحى لازالـت آرام وكنعان مطحونة فيها، ولم ترفع جدتها كفها عن رحى دائرة.

****

وقع الحياة السريعة يجذب جميلة للوقوف أمـام مرآتهـا تتعجل الوقت، تعدل من هندامها، تلتقط حقيبة تحاول أن تلـم ما تسعفها فيه ذاكرتها، كتـب، عنـاوين، هويتهـا، تشـدها المسافات إلى مكتبة الأسكندرية وماريـت والنـرويج علـى القارة الأوربية، نرويج واقعة تحت سحر الشرق، رسمت له شكلاً لمكتبة من أيد نرويجية، يقع الإختيار على ذات الشكل الدائري لكرة أرضية تقابل مولد الحضارات، يحتضنها بحر لم غوارب من حكايات الشرق والغرب، وقيصـر يـؤثر أن يظل عبداً لملكة الاسكندرية على أن يعود سيد شـعبه فـي روما، تخضع كل جارحة نابضة فيه لفتنتها، ونعومة جدائلها، كليوباترا تلك التى جمعت بين العذوبة والجلال وبين الرقـة والألفة....

كليوباترا وكيف علمت قيصر روما أن السياسة قد تكـون أمضى من حد السيف، ومسيرة البطالسة، وحضارة تدعمها وثروات تفيض، وعاشق يقرأ وهى سويا لحضارة فرعونيـة تطوى مجد البطالسة، ليقيم قيصر تمثال فينوس فـى قلـب روما فكان الوجه هو وجه كليوباترا....

وفي ساحة المكتبة.... دار الكتب.... تقف جميلة تطـالع وجوها.... ترصد مجموعات زائرة للمكتبة.... ومجموعـة من النسوة يلتففن حول امرأة تقودهن وتشرح لهن ما تستطيع أن تقدم من معلومات وإرشادات، إقتربت منها:

- معذرة أنت المرافقة للوفد النرويجى؟

التفتت إليها ترمقها بنظرة دهشة قائلة :

- نعم أي خدمة أؤديها؟....
- أريد السيدة ماريت، فأنا على موعد معها
- هي لم تستطع الحضور، جدول أعمالها مزدحم للغاية.
- هل لي برقم هاتفها في الفندق؟

وما كادت جميلة تهم بتكملة جملتها حتى تركتها الأخرى ملتفتة لباقى المجموعة

إقتربت منها مرة أخرى تسألها :

- هل لي برقمها؟

ودون أن تلتفت لها أجابتها :

- لا أعرف.... لا أعرف

ومضت عنها.... لتقف جميلة في ساحة.... شـرقية.... غربية وسط الوفود، بطاقات دخول.... لهجـات تسـمعها. والوقت يمر بها عن الثانية عشرة ولم يبق أمامها سوى الوفد النرويجي الواقف في التفافة دائرية، حديث النساء المشغولات بما يحملنه من أفكار وخيالات رسمنها من كتب قرأنها ومـا يحيط بهن يقع عليهن وقع الإنبهار لتجمع حضارات وصرح من رسم أيديهن وإعمال عقولهن... بدأت تسـتعيد كلمـات قرأتها من مسرحية إبسن.... أبطالها تخالهم يتحركون أمامها في باحة المكتبة، وبطة برية تغوص في أعشاب وأوحـال، وزمن يتوقف عنها، بطة وحيدة ليس لها أحد يهتم بها.... لا يعرفها أحد ولا يعرف أحد من أين أتـت.... غـوص إلـى القاع.... القبض على أعشاب برية....

هل تقف جميلة على بعد منهن بطـة بريـة تجـر أحـد جناحيها.... ضعيفة.... مهيضة الجناح....؟!.... وتذكر أن تلك البطة كانت القوية التى تكيفت لواقع فرض عليها....

أحطن بها نجيمات تلمع في بحر عينيها تهـديها ومضـة إرادة، دفعتها للإقتراب من دائرتهن وحزن بدأ يتسرب إلـي نفسها.... وبكلمات إبسن المرسومة على وجـوه نرويجيـة عقدت عليها عزيمتها وإرادة لن تثنيها على طريـق كلمتهـا المكتوبة في يدها.... وكلمات أودعتها في يد ماريـت فـي لقائها الأول بها.... اقتربت أكثر من إحداهن تسألها بلغة لـم يعتدها لسانها وحروف ليست لها وقع في نفسها :

- معذرة

التفتت إليها السيدة بوجه مبتسم، مقتربـة أكثـر لتضـيق المسافة ما بينهما

- تفضلي

- أسأل عن السيدة ماريت

- أوه ماريت نعم.... هى التى نظمـت تواجـدنا هنـا وللأسف لم تستطع الحضور، ولكن هل لي أن أتعرف بك

- جميلة، كاتبة

كادت إبتسامتها أن تبتلع جميلة من إنبهارها بأن الواقفـة أمامها من كتاب الكلمة، بدأت تفرغ ما بيدها اليمنى لتمـدها مصافحة، مادة يدها، وتعود تسألها : لتؤكد لنفسها ما قالته:

- أنت تكتبين؟!!!

- نعم والسيدة ماريت أعطتنى أملاً في أن تترجم لـى عملاً إلى لغتكم.

لمعت عيناها بالدهشة :

- جميل جدا.... بل رائع.... إليك برقم هاتفها وغرفتها في الفندق

أخذت تفتش في مفكرتها لتملى جميلة بكل ما قد يوصـلها إلى السيدة التى أتعبتها الرحلة ما بين شرق وغرب.... وسط اهتمام زميلاتها والنظر إلى جميلة بحنو حوط قلبهـا، تأخـذ جميلة كل رقم من سيدة لا تعرفها قد تصل من خلالـه إلـى سيدة النرويج.. وتعود لطرقات تتسع لها دومـا.... ووجـه امرأة لها ملامح شرقية تشيح بوجهها ويدها لاوية عنهـا.... ووجه امرأة من النرويج تغرقهـا إبتسـامتها.... وحـروف كلمات تغربت عن لسانها هى التى عادت بها.... وبطة برية تصلي الصبية " هدفج " لضعفها.... وحديث قد يعود يومـا

حين يذوى أول عشب على قبر الغريبة، يوم تنتقم الغابـات لنفسها.. وتحفر صوراً تلاحق ذاكرتها.. تحفرها في بريـق نجميات تلمع لها ليظل أمل لقاء سيدة النرويج هو مرحلتهـا القادمة إليها من هناك....

قد تصنع سيدة النرويج سلا جديداً لبطة برية قـال عنهـا "إبسن"

الفصل الثاني والأربعون

رمسيس

في قلب القاهرة تمضي جميلة عبـر شـوارعها تبحـث بعينيها في كل زاوية فيها.... تلتقط.... تفـتش..... تعـانق بنظراتها كل الأشياء التي تأنس لها روحها.... فقد لا تعـود ثانية..... وقد تكون المشاهد الأخيـرة لصـيف أخيـر..... تتغرب عن ذاتها.... وتعود اليها أكثر قربا متوحـدة فيهـا والأرض والمكان.... تود أن تنطق لتسمع صوت كلماتها في قلب القاهرة.... لا تـود أن تمضـي عنهـا فـي صـمت وسكون.... تسأل :

- زحام هو اليوم....

يرد عليها بصوت هزيل متعب :

- هذا هو حال القاهرة....

يطوي الطريق حيث غاية جميلة.... رمسيس الذى منـه تأتي ومنه تعود.... وشارع بدا لها أكثر اتساعاً وإنسـياباً لحركة المرور.... إيابا وذهابا.... لفحت وجههـا نسـمات معبأة بالدخان.... مدت نظرها الى المدى البعيد.... ولهفـة للوصول إلى رمسيس.... ضباب ودخان حال بينهـا وبـين فضاءات ترنو إليها.... مسافات تبدأ في الاقتراب منهـا.... رمسيس لم يظهر لها.... قوائم حديدية تحوطه تقطعها قوائم عرضية..

تلفتت مندهشة تسأل السائق :

- أين رمسيس؟!!

- أمامك يا سيدتي.... خلف القضبان والمساحة الخاليـة التي ترينها مسيجة أمامه، سيسجى عليها ليرحل بعيداً ..

لم ترد على كلامه.... يسود سـكون، يقطعـه مكمـلاً لحديثه :

- يقولون دخان القاهرة نهشـه وأصـابه بالتشـقق.... التلوث آفته وآفتنا.... سينقلونه.

شخصت في مرآة نطقت لهـا.... تتبـين ملامـح ذلـك الرجل.... تؤكد لنفسها أن ما رأتـه وسـمعته هـو عـين الحقيقة.. توقف دوران محرك السيارة... يلتفت اليها قائلاً :

- هنا يا سيدتي

دفعت باب السيارة تلقى بقدميها علـى أرض الرصـيف وتلقى بحقيبتها على كتفها، لم تدخل المحطـة التـى منهـا ستغادر، إعتلت درجات رخامية تستحث خطاها للوصول الى أقرب نقطة قد تراه فيها.... رمسيس والشمس ترافقها فـي رحلتها إليه.... تعانق حزنها بوهج الشمس.... تقف حيـث هى.... وهو.... ودموع جميلة هى الأقرب اليها منه، حالت القواطع بينها وبينه، لم تر رمسيس.... لم تستطع أن تشاهده كما كانت بالأمس، تصاب طولها أمامه من زمـن زاحـف عليها.... يرحل رمسيس عن رمسيس.... وأناس من الغرب جاءوا ليحملوه بعيداً .... واقفاً خلف القـوائم الحديديـة.... دون ملامح لوجه.... دون تفاصيل لقامة طويلة.... وانبساط قدميه.... تذكر وجهه فى المرة الأخيرة يهديها إشراقة كمـا شمس الشرق التي تأتيه كل صباح.... وكيف تقطع خيوطـا يغزلها من عيون المصريين الشاخصة إليه على مدى عهود

طويلة.... مـن علـى رؤوسـهم.... مـن سـواعدهم.... يقطعونها.... يبترونها ليمضوا بها بعيدا، من أين له أن يغزل خيوطه إليهم حيث ستغيب معه شمسه الحزينة ليبقى صـوت لم يمت في ضمير أبنائه ؟....

- من النيل إلي بوابة شرقية لأرض كنعـان، فأمنهـا.. أماننا يا شعبنا العظيم.

وقفت لتقول كلمة وداع.... بكت وأجهشت وألقت بجسمها على حافة الجسر الحديدية.... تودع عمرهـا.... وحياتهـا معه.... فأين تجده؟.... وكيف تراه؟.... وهى الراحلة معـه إلي بلاد أخرى هناك..

الفصل الثالث والأربعون

حبيبـة

لم أتعبت جميلة كلمات حبيبة؟.. تكتب فيهـا.. وتمحـو.. ليحل بياض الصفحات وسكونها.... لا يظل منها سوى عين مفتوحة تقول لها :

- أكملي باقي الحكاية.

تتسمر عين جميلة على بياض صفحتها، وفراغ يشـدها.. يكسرها.. يطحنها.. تذوي.. تذوب عليها، إلا من دمعة بلات سطوراً خاوية.. دمعة حارقة.. عين بركان هناك على حافة بركة السلطان في مدينتها البعيدة التي شهدت لها يوماً أنهـا ستظل وحيدة.. يحدثها أبوها عنها.. يدفعها فضول طفـولي للذهاب إليها.. تقف على حافتها تنظر جوانبهـا المعشوشـبة اللازجة، ومياهاً ضحلة رسخ الطين فـي قاعهـا.. تحـاول إسترجاع تاريخها من كلمات أبيها.. فتهرب منها.. لم تستطع أن ترى وجهها على صفحتها.. ولا هفهفة ثوبهـا لنسـمات

جبلية.. ولا شعرها الليلي المنسدل على كتفيها.. ولا عينا مر عليها الليل فألقى بسواده فيها.. لم تر وجههـا فـي بركـة السلطان.. حزنت ولوت عائدة تنزل درجاتها الحجرية.. قـد تسقط.. تهوي.. رجف قلبها.. تشدها ضفائر شمس مـدينتها، تطير بها بعيداً.. لجداول رقراقة.. تجمعت في بركة الشمس والقمر.. قد تسكن روح جميلة صفحتها..

***

تبكي جميلة على صفحات حبيبة.. لِم تحرقها الغصة؟ ..

وقفت رغد على باب حجرتها تسأل في دهشة :

- أتبكين يا أمي؟

لم ترد عليها.

- يا علیك لِم البكاء؟ أجيبيني

لأول مرة يرجف قلب ابنتها لهـا.. ولأول مـرة تـذوب المسافات بينهما.. تقترب من كيان أمها المهدم، ترفع وجهها إليها.. لم ترها من ثقل دمعها، حاولت أن تنطق لها.. وكيف لها وصوت راحل إلى عمق بعيد لا يطاوعها؟

- ردي يا أمي.

تأتيها بقايا من صوت :

- لن تفهمي يا بنيتي

ضحكت رغد لهمهمات صوت عائد.. نهضـت تسـتعد لمغادرة حجرتها، سعيدة لسماع أمها، تاركة خلفهـا كلمـات رشيقة طيرتها في فضاء حجرتها.

- هوني الأمر عليك.

تركتها تعذبها كلمات من أطراف الحكاية.. تتوشى علـى جوانبها أشواكاً تدمي فؤادها.

وحروف كلماته على ورقة مطوية في جيـب سـترتها؟ تسـتلها يـدها، تـنفض ثنياتهـا، تشـخص فـي حروفـه الدافئة، تستلهم من روحه البوح الجميـل، تعـود تطويهـا، تدسها في جيبها، تجلس على أريكة خشبية، ترجع برأسـها، تلقى بثقل أفكارها على آخر حافة مقعدها، تستحضر كلماتـه في ذاكرتها، تلم حروفها في بحر عينيها .. لتسقط حبات دمع تنشد لها شدو كلمات، تلم حبات دمعها بين حنايا كفيها، تمسح عن وجهها حكاية كلماته معها.. أشياء حبيبة.. تشتاق إليها.. دفء الأرض التي يخـطو عليها.. أحلام غد مفقـود لازال يشتاق للوصول إليه .. ترنو لأفق يسيل بحمرة المغيب، قـد

يلقي إليها بالغد البعيد، عبق الأجداد في ترابهم لم يصل إلـى شرايين أنفاسه، ماء البركة مازال مطموراً، نباتات شـوكية تملأ ثنايا الدرجات الحجرية وعبق أرض يسيل حنيناً يزورها كل فجر جديد.. هو لا يعرف أنها تسدل جفنيها مـع بدايـة سفرها النائم كل ليلة على ملامح وجهه.. تجهد نفسـها فـي تجميعها وحفظها في لوح ذاكرتها...ولحظة تفـتح عينيهـا تكون صورته أول انفلاتات يومها..تطالعها قبل أن تغادرهـا من خلف زجاج نافذتها...صورته لا تعرف كيف تجمعها في صباحاتها ..هي روحه التي تسكنه، ترسـم معهـا ملامحـه لشمس آتية..حب مع سبق الإصـرار..لـن أغيـب ..ولـن تفارقيني.. ونظرة حانية على عنق خلا من قلادة... أقسم لها أن يأتي وفي يده قـلادة.. يسـكبها لهـا بعمـق جراحاتـه المفتوحة... لمع في خاطرها السؤال..لِـم لا يكـون هـو وكلمات كتبها؟... التقطت من جوارها كتابه وبـدأت تعيـد قراءته للمرة الثانية ..فتعرفه وتعرف الصبية.. وقلب صغير يحلق من فوق الأكتاف، من شقوق الباب، يهرب بحلمه ليرى نور الشمس، يحمله على عود صـبار نفـض شـوكه،لتظل الصبية تسكن ذاكرته.. هل يهـديها الحلـم؟ هـل تقبـل؟..

ينتظرها؟.. تشخص جميلة في تساؤلاته، تهتف ملء كيانها ، هي آتية، الوطن والحلم .. طيور بيضاء لا تمنعها حـدود، ونجوم نسيها الليل .. لشمس غاربة ، قمر تاه عن مداراته .. وطائرة ورقية تحمل قلبه وتطير من على الحـدود .. تعبـر لآخر المسافات .. ينفلت خيطها من راحته .. فتتكسر دمعـة داخله، وهل لجميلة أن تملأ ذاكرته وتظل حلماً يـراوده؟!.. وهل تحمل قلبيهما طائرة ورقية تشق قلب الريح فيغتسـلان برغو السحب .. يلم راحتها في يده يتلمسان مواقع النجوم.. يلملمان خيوط نور نسيها الليل .. يمسحان غباراً تكوم علـى سطح بيت تحتضنه سماء وطن هناك.

****

يوم التقت بصديقه حاولت أن تقرأ من عينيه حكايات قديمة، كان رفيقاً له فيها .. ينطق لهـا باسـمه .. تعرفـه حكاية .. واليوم يجلس أمامها .. حكت لـه بنبـرة هادئـة وعينين شاردتين :

- أنا.... وأبي.. عاش بعيداً عن بلادته.. غريبـاً هنـا.. وهناك.

صمتت قليلاً تسترد نظرتها من هناك تنظر وجه الرجل الجالس أمامها، فيطل من عينيه السؤال :

- وأنت يا جميلة؟

- غريبة هنا.. كما..

ولم تكد تكمل جملتها حتى التقط منها كلماتها قائلاً:

- تعيشين التناص بين حياة أبيك الماضية وحياتك أنت.

يأخذ غريب حكاياتها المكتوبة.. ويلقي إليها بعالمه كله في روايات كتبها.. تركها وحيدة ترنو نجمة النواتي حين قالت الصبية :

- أنا ابنة أبي.

يهمس لها :

- هذا مرصدي.

وحيدة في جفاف الحلق.. جفاف الروح.

"أبي يحب المصريين ويرى الخلاص على يد عبد الناصر. "

تغلق ضفتي روايته، ترنو للأفق .. وهج الشمس ، لهيبها، عقارب ساعتها .. تقترب المشاهد البعيدة من بؤرة عينيهـا تسأل :

- هل قطع الحدود؟.. رفح مصرية.. فلسطينية.

تخرج من صدرها تنهيدة تؤنس قلبها.

الآن تعب رئتاه هواء البلاد هناك .. تلم نظرتهـا مـن الأفق الممتد شمالاً .. ونـورس يشـق المـوج بجناحيـه.. يغوص .. يطفو .. يعلو.. يسابق الـريح ليتجـه شـمالاً .. ونورس قلبها يعود إلى كلماته في جفاف الحلق :

"أبي يؤمن بالرجال الأنبياء والأتباع المخلصين."

- هل المجدل بعيدة؟ حين أراها سأظل أجري على نفس واحد، وأنى له هذا!!؟ وذكريات موت في المجـدل.. لحـم مدفون.. ومتناثر.. وعائلات تختفي تحت أشـجار التـوت والجميز.. لرحيل ومتاهة.. يتلفح باسمه .. يرسم خريطتـه المجدل.. عسقلان .. ينفض اسم المولـود عنـه .. ليحمـل خريطة من كلمتين.. غريب عسقلاني. وهل جمعهم تنـاص آخر.. غريب وهـي .. وأباهـا .. لتظـل نوافـذ البـوح مشرعة .. وكلمات حبيبـة لـم يجـف مـدادها.. تهدهـد

روحها... كأني التقيتك منذ بدايات الطفولـة، منـذ كنعـان الحروف الأولى، رافقتك قبـل اللحظـة آلاف المـرات.. أبصرتك في منابت الحكايات وخواتيمهـا، تنهضـين مـن هنا...وهناك.. ضمادات تعيد للروح المتعبة لحظات الهـدوء الغائبة ، وتمنح الآفاق المهدورة مواسم ودلالات جديـدة... وجهك يا جميلة سماء بهية، مغلفة بقلادة من الأسى... أجنحة مرهقة مرهفة تنتظر الضفاف وتأبى الاقـتلاع... يصـلني صوتك من هناك... قصائد تسيل نجوماً وشـهباً .. تلامـس فيافي وتلالاً هنا .. فتورق أرصفة العمـر مواعيـد عشـق تضيء وحشـة العـالم وسـماواته المحظـورة المحشـوة بالضباب ..

ودمعة لا يصلها لهيب الشمس.. تتكاس علـى مائهـا.. تحضنها ورقة ريحان في حوض حديقة كنعانية.. من جبـال الماس لا تتبخر ولن يطويها ضباب مسافر..

وأمنيات أن يظل قمرها ساطعاً بلا عبوس.. ليال قمريـة تصل حافة النهاية، لم تنفلت بين يديها، ممسكة بخيوطها، إلى أن تعرى آخـر خـيط علـى حـدود الفـراغ.. حاولـت سحبه فظهرت لها خطوط نهايته البيضاء.. ودموع الأمـس

لم تغادرها.. ودمعة تستقبلها على آخر حد خيط من شلة لفت خيوطها حول حدقة عينيها..

قمر يولد من بطن العتمة.. يضـيء الكـون.. ينتشـر ضياؤه.. أسماك لاتغريها مصابيح الآدميين.. تهزأ مـنهم.. يرتقون شباكهم.. يكتهل القمر.. ويكتهل قلب جميلة.. يمضي إلى عتمة أخرى.

الفصل الأربع والأربعون

إخناتون

لحظة أخذت مكانها في مقعدها من قطـار يحملهـا إلـى المنيا، يشق الأرض يلقى من جوفه أناسا من هنـا وهنـاك يحملون أحلامهم.. مشرقة.. مكدودة على أرصفة المحطات.. تفتح رسالته الآتية من قلب غزة.. انتابتها نوبة حـزن مـن كلمات كتبها إليها ((أقرأ كثيراً وأكتب أكثر.. هموم الكتابـة أنهكت قلبي يا جميلة.. السكون موت، الإغفاء موت، الذهاب للقيلولة موت، الحروف المنتزعة من دمنـا هـي الباقيـة.. نجاحك قمم فرح تملؤني.. كم أتمنى لو كنت شـاهداً علـى إشراقة طلتك وأنت تحملين فلسطين إلى سـاحات جامعـة المنيا))

أرخت يدها الحاملة لكلماته..

تسأل :

- هل تعب قلبي من محطات الرحيل؟... قلبي صرخاته ضائعة على محطات تأخذني من هنا وهناك.. وجـه أخيهـا وآخر لقاء كان معه في آخر مساء من صيف كان الأخيـر.. وحاجياتها المتكومة على سريرها دون حقيبة سفر تلمها، شد إليها إحدى حقائبه ومذياع صغير تسكن إليه كـل محطـات الكلام.. من القاهرة إلى عمان.. لبنان.. تضم راحتيها ترفـع عينيها لسقف العربة ترقب اهتزازات الحقائب المستقرة على رفوفها، تتأرجح يد حقيبتها التي جاء بها من روما.. مدينـة قديمة طوته إلى رحلة بعيدة.. ومذياع التقطت الأذن منه خبر اغتياله، تخرج تنهيده من فؤادها تلاحقها تمتماتهـا محطتـي القادمة.. هي المنيا.. تل العمارنة.. ولا أدرى مـا سـأجده عليها.. استسلمت للوقت الطويل وللعربة الضيقة على أنفاسها وأفكارها.. وطن لها شمالاً.. ووطن ينتظرها جنوباً.. ودوماً تلقى بها المسافات في اتجاه معاكس.. رنين الهاتف وصوت د / التلاوي يسأل :

- أين أنت؟....

تتلفت حولها.. تهمس لها من تجاورها نحن نمـر" ببنـي مزار".. وما هو إلا وقت قصير حتى كانـت تطـأ بقـدميها

أرض المنيا.. تشق بخطواتها رصيف المحطة إلـى البوابـة الرئيسية " د / جمال الـتلاوي" يبتسـم.. يرحـب بحفـاوة وتقدير، ينطلق بها حيث النهر العظيم.. وغفوة النيـل علـى حكايات لم تفن ولم تمت.. تحمل صـفحة مياهـه صـورة إختاتون يقابل وجه نفرتيتي.. وسيدة تتألق الأرض بجمالهـا، وجمال يطل من محيا إخناتون، إلى أن غرب مع شمس نهار لا تعرفه، ولم تخجل الشمس أن ترتفع في الأفق لتسقط على رجل كان بالأمس ملكاً واليوم ذاهب لمنفاه الأبـدي.. ومـن على ضفة النهر تلمع في ذاكرتها كل المدن القديمة كنعـان وآرام.. ومدن من شمال وجنوب شهدت صباه.. حـوريين.. حيثيين.. ميتانيين.. لتبقى الحقيقة كامنة فينا.. يمضـي بهـا الدكتور جمال يشق طريقه في قلب الجبل، تتعثر قدم جميلـة على تلة رملية.. يعلو صوت من قلبها :

- هل لحبات رمال أن تدفن ما تبقى من ذلك الذي يعيش في الحقيقة، حكاية إخناتون.. وشبح مدينة كان فيها، هجرها أحياء قبل أموات.. هائم على وجهه في فجر حياته.. وهـائم في غروبها تلتفت إليه تسأله :

- كم تبعد عنا تل العمارنة؟

- قرابة ثلاثين كيلو مترا

يعود الصوت يعلو في صدرها.... أرض غريبة.. غريب في أرضه.. وتراب أحبه.. أخذه بين طياته، يخفى عظامـه وأشلاءه.. من يريد الحقيقة.. ليعيشها.. كما..

يتوقف الصوت عند حافة الجبل الممتد لضـفة النهـر.. وصور ماضية كروان البرية يحوم في سماء المنيا لم يطـو جناحيه بعد.. باحثا عن هنادى فى ذاك الجبل العنيد..

يلاف الدكتور ساعة يراقب الوقت قائلاً :

- لازالت أمامنا فرصة لأدعوك لزيارة بيتنا قبـل بـدء الندوة..

على عتبة داره بوابة حديدية موصدة.. ولحظة سماع آلة التنبيه تفتح أمامهم لتخطو على أول ممر طويل لحديقة بيته.. تكعيبات خشبية مجهزة لتتعربش عليها عيدان زرع لم يشب بعد، ولم تنقش عليه حكايات الذكرى، عند آخر الحديقة كان ملحقاً لها.. تذكرت أبو عصام حين ترك المخيم وجاء ليقـيم معهم.. ودوالي تبرعمت على يـده.. دارت بعينيهـا حـول المكان وجاوسه تحت تكعيبة لم تشب عليها أوراق الـداليا.. ألقى بها حيث هناك.. إلى قهوة أمها وحنـين أبيهـا.. فـي

جلساتهما بين أوارق تأنس وتفرح لهما، وما بين بيت جمـال وبيتها مسافات قد لا يدركها هو، ولكنها تزداد اقتراباً لتتوحد الأمكنة هنا إلى هناك..

وكيف لجميلة أن تجد بيتها من أعواد ثقاب فـي " أخـت آتون" منيا.. شبابيك بيته مشرعة على امتداد عريش الـداليا تنتظر ازدهار أحمالها لتتجـذر علـى أرض المنيـا، تمتـد فروعها.. لتصل إلى هناك حيث بيت يشبه بيتا وأرض تشبه أرضا.. ونسمات هي ذاتها النسمات المداعبة لأوراق تهتـز تعانق الريح الحاملة لحكايات الجدود وموال الحنـين تغزلـه خيوط الشمس الممتدة من أرض فلسطين لتنتهي على أقـدام إخناتون بأيد ممدودة تقول له:

- إنها حياة.. من هناك حيث أخـت آتـون.. ومـوال فلسطيني يذكره بأن الحقيقة يراها الإنسان وقد لا تراها عين الملك.

الفصل الخامس والأربعون

بريق الماس

من الموت السريري ولحظات الترقب، ورهافـة السـمع عبر المسافات الطويلة.... هل تصل دقات قلبه إلـيهم.... أم أن مجاري الدم في جسده تتدفق منهم.... وصور له ترسمها خيالات من هناك، لسرير في غرفة زجاجية، تجاوره أجهزة ترسم له خطوطاً حية، قد تصبح ميتة، لذات القلب، لـذات الوجه والأنامل المرتخية على طرف ما... في سرير ما.... من غرفة ما.... تلك المرأة الصماء... العمياء التى ظهـرت لهم، تمد يدها إليه، تتلقفه، تنبئه ذات العينين العسلتين، بأنهـا هى رفيقة دربه....

- منذ متى كنت رفيقة؟....

ترنو إليه بعينيها المتصلبتين المتجمدتين :

- من لحظة كنت.... أنا فقط زوجة الرئيس، ومن يومها أصبحت...أنا السيدة.

يجاوبها كسيراً واهنا :

- لم أكن أريدك.... لم أفكر فيك، ولكن كان القرار هو سيدي.... القرار حين يأتينا كطوفان الموت يحصد النفـوس التائهة المسحوقة... كنت قرارا، أجدت تنفيذه

تضم جفنيها، تشتد انطباقا وانفراجا ثم ترفع لـه رأسـها مزهوة، تعب رئتيها بهواء مثقل بالعقاقير والأبخرة... قـد تحيي.... وقد تميت....

- إذن أنا صناعة القرار من هناك.... ومن هنا الآن .

تصمت برهة، لتعود تهمس له.... تبثه حـرارة أنفاسـها التي كانت، تتكيء على حروف كلمات تنطق بها :

- وغداً أنت هناك يا سيدي الرئيس.... أقصد.... يـا زوجي العزيز.

يندفع دمه المتكسر فى شريان الحياة المؤدى إلـى عقلـه حاراً... حارقاً

- لم تكوني يوما هي التي.... ولكنك كنت وبت اليـوم معك هنا....

تتسرب آهاته عبر أنفاسه المطرودة دون عـودة تحمـل تأوهات روحه الملتاعة بالحسرة تردد عليه سيرة ومسيرة...

- أنا الذى طرت في أقطاب الدنيا، عشت طائراً أكثـر ما كنت سيارا... نمت في كل بقاع الأرض، تحـدثت بكـل لسان، تجولت في كل العقول وأجدت صنعة أنا الماهر بهـا، وحولي عدد وعدة تعلموا منها الكثير، ولكن سـر نكهتنـا لا يعرفه سواي أنا.... أنا الرئيس.

من طرف عينيها تنظره ساخرة.... ومن ظـلال أهدابـه المنسدلة على حافة الغياب تتخبط نظراته إليها تهكماً :

- هي الدولارات.... ولن تسعفك ساعة الزمن لعدها.... أخذتها ومضيت تعيشين.... ترغدين هناك.... ضـقت مـن طرقات المدن، ومن مشافي غزة الحزينة وليلها الـذى مـن عتمته يرسم مدينة غارقة فيه.... وكان الدولار منه البدايـة وإليه النهاية....

تخايله دفاتره المصرفية، المذيلة بتوقيعه على مصروفات لفساتين الصبية، ألعابها، وصيفاتها.... طبيبتها.... وأخـرى

لزوجة الرئيس وتوقيع لحفلاتها، دعوات، نزهات، وليال من ألف ليلة وليلة

ترمقه في نظرة التشفي، لا يلحظها سواه وسواها ما تلبث أن تبدل قناع وجهها حين تلتفت لأناس يحيطون بها، لتحـل نظرة الأسى والشجن....وحنين لأيـام مضـت، تسـتحلفها لعودة.... فلا تسعفها سوى تمتمات باكية تظهر لمن حولهـا وكأنها الهذيان

أما هو المستلقي على حافة الغياب يستعد لرحلة من موت سريرى.... يحرك بعضاً من أطراف أنامله....

- أنا بيدى هاتين عبثت بمصـائر، وأجسـاد مزقتهـا بالحرق، بالردم، قرارات صنعتها لتصفيتهم ليحضنهم ثرى، يتفاوضون معه، تفاوض العدم

وأنامل له أخرى تعود تصحو من اسـتكانتها ورقادهـا، ترتعش.... تهدأ.... لحديثه إليها :

- بيدي أعليت أناسا من على قارعات الطرق، ومنحـت ألقابا لوزراء... وأوجدت ما بـين وزارة ووزارة وزارة... بيدي ألقيت فى جوف غزة أطفال صبرا وشتيلا... منحـتهم إسم الرئيس... ولكن طرقاتك يا غزة... كانت لهـم وطنـاً

وأهلاً... ولكني أنا.... أنا الوحيد الذي جعل هـذا الشـعب خلف عقارب الزمن الدائرة سنوات وسنوات....

ولحظة اقترب الطبيب منه، يحاول أن يرفع رأسـه عـن الوسادة لإنزال كوفيته المحوطة لرأسه والملتفة حول رقبته، رفع له يده مصارعا بها لثوان الزمن الممتدة، وكأنه يرفع بها جبل مؤاب الرابض على أرض كنعان، يحـاول بعنـاء أن يجمع كل ما تبقى لديه من قوة ليحول بـين يـدي الطبيـب وكوفيته المسيجة....

إرتد الطبيب إلي الوراء، لكي لا يتمـادي فـي ازعاجـه ليزفر الرئيس بأنفاسه، فتسرى في جسده راحة آخر زمن له، وأفكار لم تكف تتجول في مسارات شرايينه :

- كوفيتي يا حاملـة السـياج.... سـياج لازال قائمـاً هناك.... لن أسمح لأحد بالإقتراب من كوفيتي، سياج وخيمة أشدها من فوق رأسي لازالت قائمة، وعهـد عاهدتـه لهـم ولنفسى أن تظل تلـك الخيمـة هـى ذات الخيمـة ولـيس سواها.... لن يبرحها ذلك الفلسطيني، خيمة أنا صنعتها لـه عبر نصف قرن من الزمان... ما أكثر الأغبياء من حـولى،

لم يعوا أنها مفكرتي الدائمة أنام وأصحو بها لكي لا أنسى ميثاقا وعهداً... لخيمة واحدة تكفي..

ويغيب الرئيس، يأخذه موت سريري، ولكن هل لخلايا الدماغ أن تتوقف؟!.... أن تنسى رموزاً لازالت مشتعلة.... أسماء حفرت تاريخها على صفحات ناصعة....

الإسم.... كان الشهيد.... وزوجة كانت له، تتقدم للرئيس لصرف مستحقاتها، يبتسم لها، يأخذها بين ذراعيه، يقبل جبينها، رأسها، كتفها، يقبل ويقبل.... يهنىء فيها كل ما يعلن عن فقد ذلك الشهيد الذى أرق منامات الرئيس على مقعد الرئيس، على عهود عاهد بها.... لتظل التصفية....هى تصفية الجسد....وتوقع تلك الأنامل بهمة على الورقة المصرفية لتصرف آلاف الدولارات، فيلا لزوجة الشهيد، ومفروشات إيطالية لبيت الشهيد... و... و... ولكن لشرط واحد أن لا تعلق صورة الشهيد، بل تطلي حوائطه بطلاء يمحو من الذاكرة كل الذكرى....

وتنمو زهرة من صلب الشهيد.... هي إبنته ولا تعرف لأبيها رسماً يحمل ملامحاً له تدلها عليه.... كل ما تعرفه

هى ورقة مصرفية تقرأ فيها " مخصصات تصـرف لإبنـة الشهيد "

ويوم وشوشت جميلة زهرة لتدلها على قبر أبيها الشـهيد، قد تسافران معا، وتأتيان بجثمانه وتعبران به النهر....

استنكرت كلماتها، عبست لها.... وأشاحت عنها قائلة :

- لو كان أبي الشهيد يحبني، أو فكر فـي ابنتـه لمـا استشهد.

و توزع بطاقات عرس زهرة.. لم يكتـب عليهـا لقـب الشهيد.. فالأفراح تود أن تعلو بزغاريدها وايقاعات طبولها.. كتبوا عنه مرحوم.. فاطلبوا الرحمة

جميلة وكلمات.... جملة مـن كتـاب.... دمعـة علـى فراغ.... الكلمة وحدها.... الحرية وثمنها....

هل استطاع أن يسحق زهرة وأجيالاً بعدها؟!....

يجتاحه ألم يعتصره يفتته، ألم فراق ذلك الجماد الأخـرس عن الحقيقة، مقعد الرئيس، ومائدة تستدير حوله يقيم حولهـا رجال ورجال وغوارب صيف كان الأخير لرجل كان يـدق الأرض بقدميه، وكيف تمت جراحة لقدمه، بسحب لسانه من

مؤخرة كعبه المبتور، ليصمت آخرون فكل منهم لا يحب أن يدق الأرض بقدم واحدة، بل اثنتين لتمضي ورائي....

- آه يا فراق لم أكن أدري أن صيفاً كان هو الأخير لي أنا الراقد في موت سريري

وخيمة لازال يرفعها في كوفيته تحمل سياجا على رأسـه تأخذه حيث صندوق من خشب الأبنوس اللامع، يلفه قمـاش من زهرة القطن طليت عليه ألوان تمحو الذاكرة

وقفت جميلة أمام شاشة التلفاز والجميع يتوافدون لتشـييع الرئيس... مئـات آلاف.... يهتفـون لمـن عاهـد نفسـه وعاهد.... على أن تكون هى ذات الخيمة وسط سـياج.... خيمة واحدة....

ما الذي دفع هذه الجموع تحث أقدامها ترفـع سـواعدها لحمله حيث حفرة أخيرة يسقط فيها؟!.... ما الذي يبغونه من جثة همدت وأزاحت بأنفاسها الراحلة ستاراً أسود عن مرحلة سوداء؟!....

هل هو اللاوعي على ما حدث وما سوف ؟....

والآخرون كل في عينيه بريق على مقعد خلا كان لـ ذاك الرئيس....

أما تلك التي أودعته المطارات الغارقة في العتمة إلا من قطعة ماسية تتوهج على صدرها.... بذات الطلاء.... طلاء ألوان علم فلسطين صناعة ماسية وذاكرة غائبة عـن سـياج يضم خيمة.. وامرأة هى ذات المرأة صاحبة الوجه من تـل الزعتر.... ووجه لكبرياء حزين تجلس على طرقات المدينة العتيقة تبيع سل تينها فيلمع الألماس ويشتد بريقه ليكشف عن كل الحقائق فتبدو عارية تعمي العيون....

بريق الألماس من هناك.... حيث بوابات القـدس التـى تحتضن المدينة العتيقة، ورجل لازال واقفاً ببواباتهـا يبيـع حلاوة السمسمية.

ومن قوت هذه.... وذاك يزداد لمعـان الألمـاس علـى صدر السيدة التى أرادت أن تكون زوجة الرئيس.... وزوج عاش ومات ليكون هو الرئيس.... وخريطـة.... هـى ذات الخريطة خلت من كل ألوان الطلاء.... تحفرها يد الصـبى في تلال رملية... فتمخر سـابحة فـي عـروق أصـحاب الأرض، فتتوهج لهم كل ماساتها من هنا.... وهناك....

الفصل السادس والأربعون

من هنا.... وهناك....

في التاسعة مساء من شتاء عام ٢٠٠٤ وموجـة حـزن تنهش كيانها في غرفتها الساكنة، تصدها موجة نعـاس قـد تنجيها من أوجاع تعصف بها.... حزن وغربة.... تتململ في فرشتها، ينسل جوربها من أطراف قدمها، تمد يدها تبحث عنه، تلتقطه لتدس قدمها الباردة فيـه، تلـف سـاعتهاعلى معصمها، تنظر الوقت.... العاشرة... مرت ساعة، لا تدرى أين ذهبت منها في ذاكرة بعيدة تضيعها في نوم لـم تسـترد عافيتها فيه، تصفن في سقف حجرتها، تشد قامتها قليلا لتسند رأسها على ظهر سريرها، تفتح عينيها عن آخرهما وتسأل :

- لو أعرف من أين أتى إلي هذا الكم من الحـزن؟!.... يكاد يصرعني في مكاني.... تتحول ببصرها ترنو مكتبهـا المجاور لها، يطالعها وجه" قسطنطين سيمونوف " بنظرتـه البعيدة لفضاء بلاده " كنت وأبقى صحفياً " وكيف وضـعته

بجوار رفاق له انتهت من قراءة مـا كتبـوه، ولكـن هـو قسطنطين الذى أسندت كتابه كلوحة يطل عليها بوجهه، هـل يعطيها معنى التحدي، الصلابة، المواصلة، المنتمي ونبـات العمر في كاتب وكتاب، خاف في نفسها وحـدة وحزنـاً... وأنها في هذا العالم وحيدة، تفتقد الرفيق والأنيس.... بالأمس ودعت آخر كلماته وما كتبه عن أرنست همنجواى، وكيـف يموت البيت قبل أن يموت من عاش فيه، وأشياء أسوأ مـن الحرب، الجبن أسوأ، الخيانة أسوأ، الأنانيـة أسـوأ وحـين تحدثهن " اليزا تريولى"... إمرأة عنيدة لا تتفادى زوايا حادة تواجهها، بل تصطدم بها وتصاب برضوض... وهـل مـا أصاب اليزا أصاب جميلة؟!..

" بيروسمانى " في حياة صعبة وموت في أحضان الفقـر والنسيان، عصامى رائع، ولوحـات جورجيـا القديمـة.... أعشاب تحت الأقدام... السماء فوق الرؤوس.... البسـاتين المعتمة في المؤخرة.... على قطعة صـفيح يرسـم، علـى مشمع أسود منزوع من طاولات الغـداء... يرسـم بـلاده وأناسها العائشين على أرضها....

" تولستوى " " الحرب والسلام " وكيف يموت الناس وما هى رائحة الجرحى.... ومـا هـى رائحـة المـوت.... " بابلونيرودا " المتحدى الهادىء، لم يقطع الأمـل مـن نجـاة شخص ضل الطريق.... برحيلهم يطبق العالم عليها، مرخيـاً كآبة، تسدل ستائر الصمت والوحشة من حولها .... عادت جميلة وحيدة دونهم، ليس أمامها سوى النهوض، فلا زالت لديها أنفـاس باقية.